انتصار مظلم:

الربيع العربي والفضح المصلحي

حازم خيري

2014

إلى

سجناء الرأي في مصر والعالم، كلهم بلا تمييز

"بدأ نهار جديد،

ويبدو كأنه ليل"

تشارلز بودن

المحتويات

مقدمة

1. ما بداخلنا لا يريد الحقيقة

2. ثورة فكرية: بيدي لا بيد عمرو

3. حصار الحياة: الإنسان في قارورة

4. دولة العسكر: أهي صحوة الموت؟

5. الدولة العميقة ولدغ الثورة المصرية

6. الإسلاميون والعسكر: صراع الضعفاء

7. فكرة التمكين: بين الضرورة العملية والاضرار بالمستقبل

8. في انتظار الانهيار العظيم

9. الوسطية والعملية والغائية

10. هجمات 9/11: ذكرى التمرد على أسطورة الاستقلال

11. تجربة العيش في مجتمع فاسد

12. الخروج من الجاهلية الأخلاقية

13. دولة الاسلام السياسي: الطموح الحاضر والاستراتيجية الغائبة

14. روما الجديدة: إمبراطورية قوى السوق الكونية

15. الرجل الأبيض والقيادة بالأسطورة

16. الهرولة إلى الاستقرار

17. الفساد في مصر: طبيعة حمائية وقابلية للاستدامة

18. محاولة لتشريح فكرة

19. من السلوك الثوري إلى التفكير الثورى

20. شبابهم وشبابنا

21. الأنسني والاستعلاء بالتمرد

22. الإخوان المسلمون: قواعد تُصلح بدمائها أخطاء القيادة

23. لن أنزل مع حضارتي في قبرها

24. مظاهرات الطلبة ما بعد العسكر

25. ثورة 25 يناير: عندما يكون الشعار محشوا بالرداءة

26. الاستقرار والثورة: خصمان أم شريكان؟

27. ماذا يُصلح الطعام إذا فسد الملح؟

28. ما بعد العسكر: مخاوف مشروعة

29. إشكالية تفكيك دولة العسكر

30. كفى عبثا واتجارا بآلام الفلسطينيين

31. العاطفة ذلك البريء الملوم

32. الإله الرقمي وشريعة العولمة

33. كواليس صناعة القرار في أمريكا

34. الكتمان أنثى .. والبوح ذكر

35. هيكل وقطب: وجهان لزمن واحد

36. هيكل ينقض غزله .. بأمر من؟

37. كن أخلاقيا وإلا سحقتك

38. لنجرب الظمأ وقد أذلنا الرواء

39. لست عنصريا

40. دولة الإسلام السياسي: عندما تكون المصالح الحياتية مُشبعة بالقداسة

41. الضرورة العملية: عندما تُنسخ القداسة بالقداسة

42. الفلسفة والحياة

43. المواطن "الأمنجي" وبؤس الاستبداد

44. الفضح المصلحي أسوأ من التواطؤ

مقدمة

لم أختر عنوانا لهذا الكتاب الصغير إلا بعد الانتهاء من المقالة الأخيرة: "الفضح المصلحي أسوأ من التواطؤ". المقالة فضح ذاتي أكثر منها تعرية لمحيط مجتمعي وواقع اباحي، هي خطوة لم تزل غير واثقة على طريق كسر رهاب الخطأ والذى هو من أخطر عوامل جعل حيواتنا القصيرة محض انتظار لانهيار حضاري عظيم.

الكتاب حصاد مجموعة من المقالات نشرتها رقميا منذ بدايات 2013 وحتى كتابة هذه السطور، حاولت قدر جهدي خلالها أو على الأقل في بعضها مُشاغبة نفسي والحياة – بحسب تعبير أحد حائزي نوبل –.

الكتابة – في الفكر الأنسني – مُغادرة الخوف والرضا والمسالمة !

بنافذة ضيقة جدا – طبقا للبيولوجي جورج والد – يمكن للفرد على مسافة منها أن يرى فقط شقاً من الضوء، فإذا ما اقترب منها ازداد المشهد اتساعا، حتى ينظر الفرد في النهاية من خلال نفس هذه النافذة الضيقة إلى العالم كله.

الخروج من الحصار ليس أبدا بالمهمة الميئوس منها، فهناك ناحية مهمة سنجد الوضع فيها أكثر مدعاة للأمل إذا ما قورن بالموقف بالنسبة لظلمات الماضي، كانت منطقتنا مليئة بويلات الظلم والفساد كما هي مليئة اليوم بهما.

الإنسان يستطيع عندما يرغب أن يسحق الكثير من الظلم والفساد، المهم ألا نسمح بإغلاق النوافذ .. مهما ضاقت!

حازم خيري

القاهرة . يونيو 2014

(1)

ما بداخلنا لا يريد الحقيقة

"عندما ينتهي عملها، تتعفن الأكذوبة،

الحقيقة عظيمة، وستظل باقية,

عندما لا يهتم أحد ببقائها أو غيبتها"

من مذكرات السير رونالد ستورس

العنوان هو الرسالة..

في بلادي الكل يتظاهر بالنقاء والطهر!..الكل لديه جرأة التقاط حجر ورجم الكل!..في بلادي شديدة الهشاشة لا يعرف الناس الاعتراف بالحقائق غير المريحة!

ولأني أحب الحقيقة، ولأني حريص على التمكين لفكرنا الأنسني والذي أكتب فيه منذ سنوات، أجرؤ على الاعتراف بوهن شخصي مقارنة بهذا الفكر السامق.

أعيش في مجتمع يدعى العصمة، وهو ويا للمفارقة أبعد ما يكون عن أدنى درجاتها! وصم الحقائق غير المريحة بالتطرف(أو الجنون) عادة "مُكبلة" لبلادي.

الفرنسي هيجو يقول: تعمل العادة في الكائن البشري عمل المرضعات.

بمعنى أن أخلاقنا وتقاليدنا وآراؤنا في الخير والشر ليست سوى عادات.

فمنذ فجر الحياة نتعود نحن معشر البشر على بعض المظاهر والأعمال التي تتأصل فينا على التكرار، فنتصورها نواميس طبيعية، لا أمل في تفكيكها وقتلها!

أعيش هذه الحالة: [قوة الفكر ووهن المفكر]

(2)

ثورة فكرية: بيدى لا بيد عمرو

"إن اختراع التقاليد أضحى

تجارة رائجة تفوق كل تصور"

إدوارد سعيد

من يعلم؟! ربما يكون ربيعنا العربي مُقدمة "غير واعية"، لثورة فكرية، لم تتضح معالمها بعد، تتفجر مستقبلا تحت أقدامنا في العالم العربي، بل في الحضارة الإسلامية بكليتها، وتجعل ما يحل بمجتمعاتنا المارقة – من جهة رفضها للحقائق غير المريحة ومبالغتها في تأكيد الحقائق المريحة – أشبه بهزائم تُشرب في آنية النصر.

المفكر الراحل عبد الله عزام يقول في كتابه "في خضم المعركة": "..كل مبدأ من المبادئ لابد له من طليعة تحمله، وتتحمل وهي تشق طريقها إلى المجتمع تكاليف غالية وتضحيات باهظة، وما من عقيدة من العقائد أرضية كانت أو سماوية إلا واحتاجت إلى هذه الطليعة التي تبذل في سبيل نصرة عقيدتها كل ما تملك، وتتحمل

لأواء الطريق الصعب الطويل حتى تصل إلى إقرارها في واقع الحياة إذا كتب الله لها التمكين والظهور، وهذه الطليعة تمثل، القاعدة الصلبة للمجتمع المأمول"(1).

كلمات هادرة، تدعونا للتساؤل عما إذا كانت مجتمعاتنا والتي تشهد صعودا إسلاميا رسميا، تملك مثل هذه القاعدة الضرورية للانطلاق نحو أحلامنا الثورية؟

قد تكون الإجابة مخيبة لآمال شبابنا الثائر، لكنها حق لا سبيل للتنكر له!

فأولئك الذين يملكون مثل هذه القاعدة اليوم هم: قوى الإسلام السياسي، فضلا عن قوى السوق الكونية، وفي طليعتها الولايات المتحدة الأمريكية. وهو ما يفسر في جانب منه، الصدام الدموي بين الراحل بن لادن ورفاقه، وبين الولايات المتحدة.

"كلام حلو..بس نبتدي منين؟"، عبارة لقائد إحدى الحركات الشبابية الثورية في بلادي، ردا على اقتراح أُلقي أمامه عن إمكانية الاستفادة من الشحنة الثورية لحركته اللاعنفية في تدشين ثورة ثقافية، تذهب بشعوبنا، خاصة شبابنا، إلى آفاق أرحب.

الثورات الفكرية وعلى خلاف نظيرتها السياسية والعسكرية، إنما تستند لفائض معرفة وليس فائض غضب فحسب. الحالمون بتثوير مجتمعاتهم فكريا لابد لهم من:

[1] صفوة فاضلة تُقاتل على الخطوط الأمامية للمعرفة، وتوافي شعوبها بالحقائق، المريح منها وغير المريح. وأيضا تحرص على مقاومة بلوغ الحياة العامة مرحلة يتحول فيها الفكر إلى سلعة! [2] لغة "تنويرية – لا مجرد وسيلة لتسويق سلعة –"، خاصة ونحن نعيش في عصر بدأت فيه لغة الصورة الجور على الأبجديات الُمتعارف عليها، ربما على نحو غير مسبوق. [3] ضمائر حرة قادرة على تعفف جاذبية التكنولوجيا وعدم إدمانها – لاسيما في عصرنا الرقمي(2) –، إضافة إلى قدرتها على احتضان تخمير ثوري حقيقي، بعيدا عن ثورات اللاوعي العولمية.

قوى الإسلام السياسي – بروافدها المتنوعة –، ربما لا يكون لديها المزيد من الزخم الفكري لضخه في حضارتنا، الأرجح أن قواها قد استُنزفت إبان كفاحها المرير والشجاع ضد دولة العسكر، فكم من نبلاء أزهقت أرواحهم، من غير ذنب أو جرم!

هذا إلى جانب التفكير الفقهي[وطبيعته المصلحية/الغائية]، لهذه القوى الطموحة، ولا أقصد هنا التهوين، وإنما توضيح الارتباط بالشئون الحياتية اليومية.

ولننظر حرص حكامنا الجُدد على قطف ثمار الحضارة الغربية، واستسهالهم التذرع بمقتضيات الضرورة العملية، بعيدا عن أسطورة النقاء الحضاري وغيرها.

أما قوى السوق الكونية، فالأمر معها جد مختلف! والمقارنة بينها وبين قوى الإسلام السياسي غير واردة، فعدم التكافؤ هائل لا يحتاج لإقامة الدليل عليه. ما أود التأكيد عليه هو امتلاك الولايات المتحدة الأمريكية وحلفائها لقاعدة صلبة – بتعبير عزام –، تُرجح قدرتهم الفائقة على فرض مشيئتهم الذكية/المُبرمجة على بقية شعوب الأرض، في اتجاه الاستهلاكية والخضوع للسيادة الناعمة لقوى السوق الكونية.

والسؤال: هل ثمة إمكانية "محلية" لتثوير مجتمعاتنا فكريا في عصر العولمة؟

نعم، ثمة إمكانية، لكنها تظل مرهونة بأمور[من قبيل: صفوة فاضلة، لغة تنويرية، ضمائر حرة]، تحتاج هي نفسها لجهد تنويري نقدي جبار – من جهة التفكير الفلسفي(3) –، يزيد من صعوبته "محنة التنوير"، التي تلقي بظلالها على العالم بأسره(4)، خاصة الولايات المتحدة، منذ تحول مركز ثقل الحضارة الغربية إليها..

لا أعظم..ولا أخطر..من النضال تحت راية أحلامنا الثورية!!

---

(1) الاقتباس نقلا عن هذا المصدر: جاسون بيرك، "ما هي القاعدة؟ إعادة رواية القصة من الداخل، في جاسون بيرك(وآخرين)، بدون مترجم، ظاهرة بن لادن..لماذا ينتشر فكر القاعدة في المنطقة العربية؟، (القاهرة: المركز الدولي للدراسات

المستقبلية والإستراتيجية، سلسلة ترجمات، العدد 2 . السنة الأولى، فبراير 2005)، ص 7.

(2) علمت مؤخرا أنه قد صدر كتاب مهم لجارد كوهين وزميل له في جوجل. الكتاب بعنوان: العصر الرقمي الجديد، يناقش على ما يبدو من اسمه تطبيقات الطوفان الرقمي، وليته يجد من يتصدى لنقله للعربية.

(3) الجهود المبذولة مستقبلا ستأتي استكمالا لجهود تنويريين عظام أمثال ادوارد سعيد، ومحمد أركون، وعبد الرحمن بدوي، ..

(4) عن محنة التنوير يقول هوركهايمر & أدورنو في كتابهما القيم "جدل التنوير"، الصادر في 1947، ما نصه: "كانت المفارقة التي وجدنا أنفسنا بمواجهتها طيلة مسيرة عملنا، وهي ما توجب علينا تحليله في المقام الأول هي: تدمير العقل التنويري لنفسه، لم يكن لدينا أدني شك أن الحرية في المجتمع لا انفصال لها عن الفكر المتنور. كانت هذه نقطة انطلاقنا الأولى. بل لقد كان علينا أن ندرك وبوضوح أن مفهوم هذا الفكر، ناهيك عن الأشكال التاريخية العينية، ومؤسسات المجتمع التي يتواجد فيها هذا الفكر، إنما تنطوي على بذرة هذا التراجع الذي نعانيه في أيامنا في كل مكان. والتنوير إن لم يبادر بعمل تفكيري يطال هذه اللحظة من التراجع، فهو كمن يقوم بترسيخ قدره الخاص". للمزيد عن محنة التنوير راجع: ماكس هوركهايمر & ثيودور ف. أدورنو، ترجمة جورج كتورة، جدل التنوير . شذرات فلسفية، (بيروت: دار الكتاب الجديد المتحدة، 2006).

(3)

حصار الحياة: الإنسان في قارورة

"إن أخطر ما تهددنا به البيوتكنولوجيا المعاصرة

هو احتمال أن تغير الطبيعة البشرية، ومن ثم تدفع

بنا إلى مرحلة ما بعد البشرية من التاريخ"

ف. فوكوياما

لا مثيل لمجموعة من المفكرين المستقلين..مملوءة نفوسهم بالمعرفة والفضيلة، آتين من آفاق انسانية رحبة، من أجل تهيئة مجتمعاتهم لثورة فكرية دائمة، شرط أن تكون لديهم حرية التفكير في الزمن وليس واجب انتاج دراسات بشكل طاريء.

في حوار مع صديق لي، قابلته مصادفة في مترو الأنفاق ولم أكن قد رأيته منذ اندلاع ثورة 25 يناير، تطرق الحديث بيننا إلى كتاب للأمريكي فرانسيس فوكوياما، موضوعه البشرية وما يتهددها من مخاطر. وبينما نتبادل الحديث عقدت العزم على اقتناء الكتاب، اعتقادا منى في حداثة صدوره(!)، فقد لفتني كثيرا غموض وروعة تعبير "ما بعد البشري"، ووجدت فيه تحريضا لا يُقاوم على البحث والتأمل!

لجأت كعادتي إلى الانترنت، وكم كانت دهشتي . وخجلي بالتأكيد . أن ترجمة كتاب فوكوياما موجودة في مكتبتي، بعنوان: نهاية الإنسان: عواقب الثورة البيوتكنولوجية. سعدت جدا بالأمر، خاصة وأن للمترجم القدير أحمد مستجير تراجم أخرى عديدة في الحقل المعرفي نفسه، لعل أبرزها ترجمته المعنونة: الجينوم البشري: القضايا العلمية والاجتماعية، وهي تعالج مشروع الجينوم البشري من مختلف جوانبه النظرية والعلمية والقانونية والأخلاقية، في تغطية رائعة من مقالات اشترك في كتابتها عدد من الشخصيات العلمية أمثال: جيمس واطسون، ووالتر جيلبرت..

خطورة مثل هذه الكنوز المُترجمة أنها تُعرفنا بموضوع غاية في الأهمية للمستقبل، فمشروع الجينوم البشري يهدف إلى فك الشفرة الوراثية للإنسان، من خلال سعي دءوب إلى تحديد هوية تلك الجينات التي تحدد خصائصنا وأمراضنا، وتجعلنا بشرا. التكنولوجيا الحيوية قادرة على "حصار" مسار حياة الإنسان في القرن القادم.

هذه المقالة لم أكتبها بالطبع لفضح تقصيري في حق المعرفة فحسب، وإنما أيضا لعرض ما تداعى لذهني من أفكار، على خلفية هذا التقصير، كموضوع نقل المعارف المختلفة إلى لغتنا الأم، وما يتطلبه من ضخ أموال وجهود ضخمة، لترجمة تراث ومستحدثات الفكر الإنساني، وإخراج ثمار هذه العملية في طبعات لائقة، ونشرها بأسعار معقولة على أوسع نطاق. الترجمة مهمة ليس فقط لأنها تنقل إلينا معارف شتى من مجتمعات لها السبق، ولكن لأنها تمكننا من فهم تلك المجتمعات وآلية التفكير والحياة فيها، فما يحدث عندنا ليس مرده تفاعلات داخلية فقط كما نتوهم.

ثمة حصار لابد من كسره..

العاملون بالحقل الأكاديمي في بلادنا، قد لا يكون بمقدور غالبيتهم إضافة الكثير إلى ثرواتنا المعرفية، فلماذا لا نستفيد منهم في الترجمة، كل في تخصصه، بل ونشترط ذلك في ترقياتهم وإجازاتهم العلمية، خاصة أولئك الذين يذهبون في بعثات.

العالم الغربي يعيش ربيعا ثوريا حقيقيا، لا كربيعنا العربي، سيل الثورات عندهم لا ينقطع، كل يوم هناك الجديد. من هنا، لابد لنا من إيجاد وسائل مبتكرة لحماية مبعوثينا من الانبهار بالغرب وتمكينهم من تجاوز لين المدح والانبهار إلى خشونة النقد الأنسني، فضلا عن واجبنا في تبصيرهم بعواقب الانحشار في ميراثهم الحضاري.

نعلمهم أن يتخذوا من معارفهم أيا كان مصدرها تكأة للوثوب نحو المستقبل.

وجود مناخ فكرى قابل للاشتعال، قد لا يتحقق بالضرورة مع تدفق كل هذا الكم المُستهدف من الترجمات لروائع العالم ومستحدثات الفكر الإنساني، فهناك أمور أخرى لابد من توافرها، كالدوريات والمجلات الفكرية والعلمية. فضاؤنا الثقافي يعاني من فقر مدقع في هذه النوعية من المجلات والدوريات والتي يخضع أغلب المتاح منها لاعتبارات ما أنزل الله بها من سلطان، فمن يشترط الشهرة والأسماء اللامعة في

مجتمعات واهنة، ومن يشترط الوساطة والمحسوبية، ومن يطلب مالا يُطلب لاعتبارات الترقيات الأكاديمية..إلى غير ذلك من مُفسدات الفعل الإبداعي.

لابد أيضا من توافر دور نشر حقيقية، أعني صاحبة رسالة، وليست سوبر ماركت، لا تغالي في ثمن بيع الكتاب، ولا تفرط في مستوى لائق من جودة الطباعة ووضوحها. في مجتمعات كمجتمعاتنا لابد من آلية مبتكرة يتم من خلالها حماية القارئ، ليس من الأفكار كما قد يظن الحمقى، لكن من رداءة عملية النشر والتوزيع.

وجود مناخ فكرى قابل للاشتعال، قد لا يتحقق أيضا مع توافر كل هذا، فهناك الكثير مما يلزم عمله! لا أدرى، قد يتطلب الأمر إعلانا صريحا ل"نكبة" مجتمعاتنا فكريا!

ذائقة الإبداع متعددة الوجوه، كما أنها أكثر من مجموع مكوناتها

(4)

دولة العسكر: أهي صحوة الموت؟

عبد الناصر قام من الأموات! عبارة سمعتها على شاشة التليفزيون الحكومي في بلادي، رددها أحد المتحمسين للانقلاب المشئوم في مصر. العبارة تجسيد لغياب الوعي وتجذر التخلف. نحن جزء من العالم، وما يحدث على أرضنا لا ينفصل عما يحدث في العالم، على خلاف ما علمونا – كذبا – في المدارس والجامعات. بلادنا لا تصنع التاريخ، وانما تسير به..

جمال عبد الناصر كان جزءا أصيلا من اللعبة الدولية في زمنه، أتقن أصول اللعبة وبرع فيها، غير أنه لم يضع قواعدها. مأساة بلادنا هي الخلط المأساوى بين وضع قواعد اللعبة وبين اتقان اللعبة. واضعو قواعد اللعبة هم الأخطر.

دولة الاسلام السياسي هي الأحق بوراثة دولة العسكر، أما مسألة نجاحها من عدمه، فتحتاج سنوات للبت فيها. الاسلاميون – على اختلاف مشاربهم – هم الوجه الوحيد الحي لحضارتنا الاسلامية اليوم، فليأخذوا فرصتهم العادلة.

(5)

الدولة العميقة ولدغ الثورة المصرية

"كله شِمال يا صَحبي"

عبارة كتبها أحد الشباب على تي شيرت يرتديه(*)

رغم أخطاء قاتلة وقع فيها الاسلام السياسي خلال الفترة القصيرة التى تصدر فيها المشهد السياسي في بلادي مصر، عقب ثورة 25 يناير المجيدة، تظل الدولة العميقة في بلادي مصر مسئولة – إلى حد كبير، وبقوة – عن الحاق الأذى بالثورة المصرية.

وأعني بالدولة العميقة هنا البيروقراطية المصرية التى اقترن تعملقها بميلاد دولة العسكر، فقد سعى مؤسسها الراحل جمال عبد الناصر إلى بناء بيروقراطية مصرية شديدة الترهل والفساد، استند اليها وخلفاؤه في ادامة حكمهم، واحكام قبضتهم على المجتمع..

البيروقراطية المصرية فشل الاسلاميون في التعامل معها، لعدم أخذهم بالأساليب العلمية والتجارب الدولية في هذا الصدد. الفهلوة أوردت دولة الاسلام السياسي

الوليدة المهالك. احتضن الاسلاميون أفعى سامة وهم يظنون – بغرور مُستفز – أنفسهم بمنأى عن لدغاتها المميتة.

ما يزيد الأمر تعقيدا هو أن البيروقراطية المصرية المترهلة والفاسدة تربطها بالمجتمع علاقات متشابكة ومعقدة ومتراكمة، حتى أن الاقتراب منها – سلبا أو ايجابا – سرعان ما يتردد صداه في انحاء المجتمع، بمختلف مكوناته ومستوياته، على نحو غريب وُمدهش..

الأمر – إذن – يتطلب بحثا جادا، لا أراه ميسورا في ظل غياب صفوة فاضلة .. في ظل غياب ثقافة اللامصلحة واللاخوف. إن حضارتنا بحق هي حضارة الضرورة العملية.

قرأت لمنسق حركة شباب 6 أبريل قوله إن ثورة 25 يناير عادت إلى المربع "صفر"، وهو على حق، فالانتكاسة شديدة ومزلزلة، غير انها لا تخلو من فائدة، إن نحن تعهدنا ما حدث بالتحليل النزيه والمنظم، ربما ننجح في تعويض ما فاتنا في التعاطي مع 25 يناير.

(*) العبارة مكتوبة بالعامية المصرية، ومعناها ان الكل باطل!

(6)

الإسلاميون والعسكر: صراع الضعفاء

بوقوع هجمات الحادي عشر من سبتمبر عام 2001، في عاصمة قوى السوق الكونية، تقرر انهاء حكم العسكر في بلادنا، لعجزهم الواضح عن احتواء ولجم الإسلام السياسي.

وبالفعل جاء الربيع العربي آية في العبقرية، إذ حرم العسكر من فرصة قمع الاسلاميين، فالشباب غير المُسيس في المقدمة، والمساس بهم يزيد الأمر اشتعالا، بينما الإسلام السياسي هو الحليف المستتر للشباب، يشارك بقوة في الثورة ، ويحشد أنصاره في مليونيات هادرة.

الربيع العربي آية في العبقرية وخصوبة الخيال، لكنها عبقرية وافدة، فافلاس حضارتنا الإسلامية يقف حائلا دون القبول بفكرة وجود خيال عربي قادر على ايصال الاسلاميين للسلطة – وهذا حقهم بعد عقود القمع والارهاب – من خلال ثورة لاعنفية، يقودها "جيل الانترنت".

يؤكد زعمي هذا انه بعد مرور عام تقريبا على صعود الاسلام السياسي للسلطة في مصر، وجدنا دولة العسكر تنجح في اغراق الاسلام السياسي في أوحال

البيروقراطية المصرية، تقريبا بنفس سيناريو الربيع العربي. فالشباب في المقدمة، والبيروقراطية المصرية – هذه المرة – هي الحليف المستتر، تدفع بالناس في مليونيات هادرة..

ألم أقل إن حضارتنا مُفلسة، فها هي عبقرية الربيع العربي الوافدة، تُستهلك دون أدنى اضافة، وسط أغاني النصر وادعاء التفوق والعبقرية والبطولة..

العسكر الآن في مواجهة الاسلاميين وجها لوجه. يُدرك العسكر أن الاخوان المسلمين هم النواة الصلبة لدولة الاسلام السياسي الوليدة، وُيدرك الاسلاميون أن الجيش هو النواة الصلبة لدولة العسكر الهرمة. ما نشهده الآن هو – بحق – صراع الضعفاء!!

الصراع نفسه سبق وأن حدث ابان ثورة 23 يوليو 1952، غير أن الأمر يختلف الآن، فنحن نعيش في عصر العولمة، والاسلام السياسي – ويالها من مفاجأة – أقرب إلى المزاج العولمي. فالعولمة عملية جدلية، من ناحية انفتاح على العالم، ومن ناحية أخرى انكفاء على الثقافة وفي القلب منها الدين، وهو ما يتوافر – على نحو مُدهش – في الاسلام السياسي.

الدين والسوق هما قاطرة العولمة!

(7)

فكرة التمكين: بين الضرورة العملية والاضرار بالمستقبل

"نحن قوم عمليون"

د. عصام العريان

لوم قاس يُوجه للإسلام السياسي، وفي القلب منه جماعة الإخوان المسلمين العريقة، لحرصهم الشديد على التمكين لأنصارهم في البيروقراطية المصرية. في حين أن الإسلاميين ليسوا أول من يأتي مثل هذا السلوك الضار، فقد سبقهم العسكر إلى هذا، عقب صعودهم إلى السلطة في مصر، على خلفية ثورة 23 يوليو 1952.

التمكين يُعطى الأولوية للأنصار والمريدين والأحبة، بغض النظر عن مدى الجدارة والاستحقاق، فهدفه – دائما – هو تحقيق السيطرة والتحكم، وضمان استدامة الحكومة، واجتثاث أنصار ومرتزقة الدولة الفاسدة الزائلة من الفضاء البيروقراطي.

فكرة التمكين لا بأس بها، لولا أن نتيجتها الحتمية هي استبدال "آخرية" محلية – ربما أسوأ – بأخرى، دون تحرير لذات طال ليل اغترابها، ودون التأسيس لمجتمع

العدالة والشفافية والخير العام والفرص المتساوية. ويزيد من بؤس فكرة التمكين امتزاجها بشوائب أخرى كالقرابة والمصالح الاقتصادية والمشترك الإيديولوجي..

بلادنا بحاجة ماسة لتجاوز فكرة التمكين البالية إلى أفكار أخرى خلاقة، تحقق الأهداف المشروعة للتمكين، وفي الوقت نفسه تعفى مجتمعاتنا من مخاطر التمكين وتداعياته غير المرغوبة، كما عانينا منها في ظل دولة العسكر، والتي امتد حكمها لعدة عقود، لم تسلم مجتمعاتنا خلالها من تداعيات العسكرة و"كله تمام يا أفندم"..

تجاوز فكرة التمكين – إن هو حصل في بلادنا – خطوة جبارة على طريق تحرير مجتمعاتنا وتقويتها في مواجهة المستقبل. المشكلة أن التمكين هو دوما الحل الأسهل أمام الحكام أُجدد والدول الوليدة، رغم كونه الأكثر إضرارا بالمجتمعات.

نريد مجتمعا حرا قادرا على الصمود والتماسك، بعيدا عن منطق القبلية، أقرب للحكم الرشيد والشفافية. التمكين وصفة "الآخر" لإفشال الدول، وإفساد المجتمعات.

(8)

في انتظار الانهيار العظيم

حضارتنا الإسلامية، ومن باب أولى ثقافتنا العربية، لم تستفد كثيرا على ما يبدو من فكرة التنوير – بشقيه الإيديولوجي، والنقدي – ربما استنادا لكون الفكرة إحدى مكتسبات الحضارة الغربية، فضلا عن عدم اتساق الفكرة نفسها مع البنية الفكرية النقلية، والتفكير الفقهي/الغائي، وكذا الطابع العملي للحضارة الإسلامية..

ما يزيد الأمر صعوبة مع حضارتنا هو عجزها المزمن عن ابتكار معادل إسلامي لفكرة التنوير، يحفظ لحضارتنا كبريائها، ويمنحها القدرة على تحريك التاريخ وليس السير به! حضارتنا – على الأقل نظريا – في انتظار انهيار عظيم، كونها ممزقة منذ قرون، بين ممانعة التنوير الغربي، وبين العجز عن ابتكار معادل له.

هذا التمزق – برأيي – لن تتحمله حضارتنا كثيرا، خاصة في عصرنا الرقمي وما بعده! ستصل حضارتنا على الأرجح لوقت تجد نفسها غير قادرة على المضي قدما في تحايلها الراهن على آلامها، والذي يتم من خلال العيش في حياتين. فشعوبنا لها

حياة مستترة، تتحلل خلالها من كافة – أو على الأقل معظم – مسببات الألم الحضاري. وحياة أخرى علنية يميل الناس فيها للاتشاح بكل ما هو شائع ومألوف.

هذه الازدواجية الحياتية قد تنجح، بل هي ناجحة حتى الآن، في تأجيل "الانهيار الحضاري العظيم"، على الأقل في حيواتنا الظاهرة، فثمة انهيار غير مرئي حاصل، ميدانه حيواتنا المستترة، حيث لا صوت يعلو فوق صوت التململ والتمرد.

أقول انهيار، كون ما يفعله الناس في مجتمعاتنا مجرد قهر عشوائي – وضبابي وانتقائي وغير معلن في أغلب الأحيان – لاغترابهم الثقافي، ففي حيواتنا المستترة نفعل ما لا نفعله في حيواتنا الظاهرة، بل ونزيد الطين بله بأن نتشدد لحد المزايدة في انتقاد ما يفعل خفية، ونحيطه بسياج متين من السرية والحذر والتدين.

ينطبق هذا أكثر ما ينطبق على المكون الجنسي لحضارتنا – إلى جانب مكونات أخرى بالطبع –، ففي حيواتنا المستترة متنفس قوي لهذا الصداع المزمن.

حضارتنا إذن، وعلى خلاف الحضارة الغربية، قادتها آلامها لتحايل وتمرد خفي، يتمترس ورائهما التواء الذكاء، وأمراض اجتماعية أخرى شديدة التعقد والتراكم، وهو ما ينذر بحدوث ما سميته "الانهيار الحضاري العظيم"، ليس لعدم احترامي له،

فالتمرد دوما موضع احترام وتقدير، وإنما فقط لطبيعته، فهو عشوائي وضبابي وانتقائي، بدأ في حيواتنا الُمستترة ولسوف يزحف في اتجاه حيواتنا العلنية!

تصدع سرطاني غير مرئي، يعقبه انهيار مفاجئ وشامل للبناء الحضاري..

(9)

الوسطية والعملية والغائية

لحضارتنا الإسلامية خصائص عديدة، لعل أبرزها وأكثرها نفوذا في واقعنا المعاش:[الوسطية، والعملية، والغائية]. دارسو حضارتنا في تناولهم لهذه الخصائص وفي تنقيبهم عن جذور آلامنا الحضارية، لا يتجاوز جهدهم التوقير الشديد لهذه الخصائص، أو على الأقل مسالمتها، فضلا عن توجيه اللوم للأجيال، خاصة الحالية، من منطلق مسئوليتها عن عدم استثمار هذه الخصائص وإخفاقها في محاكاة ما جرى في صدر حضارتنا العتيقة، فاستعادة "يوتوبيا" السلف حلم يراود حتى أكثرنا تململا.

دارسونا لم يجرؤوا – بعد – على التشريح النقدي لهذه الخصائص الراسخة، واختبار بنيتها الذاتية، حيث الاكتفاء بدراسة تأثيرها، وإدانة الفشل في استثمارها.

الوسطية مثلا – ومن النظرة الأولى، حال النظر النزيه والمنظم – تحمل في طياتها بذور معاداة التطرف، ولو كان خلاقا، رغم أن العبقرية في جوهرها تطرف، بمعنى الخروج عن المسار المجتمعي العام، على نحو غاية في الخصوبة والإلهام.

مجتمعاتنا في ولعها بالحلول الأسهل والأكثر إضرارا بالمستقبل، يزعجها كثيرا الخروج عن المألوف وارتياد آفاق غير مأهولة، موصدة بذلك الباب أمام الابتكار، المرغوب منه وغير المرغوب. المخاطرة والألم لا طاقة لمجتمعاتنا المتعجلة بهما!

بيد أن الغريب هو تكالب مجتمعاتنا على استهلاك نتاج عبقرية المجتمعات الأخرى، دون أدنى وخز ضمير أو خجل، على خلفية قناعة كلاسيكية، مفادها أننا نمر بعصور انحطاط، بعد عصور ازدهار، فالنجاح عندنا يجب ما قبله! لا تتقبل مجتمعاتنا أن النجاح الذي لا ينطوي على مقومات الاستدامة أسوأ كثيرا من الفشل.

معاداة التطرف، بتحالفها مع خصائص أخرى كالعملية والغائية..الخ، تنتج مزيجا حضاريا آية في الخطورة، لا يدوم معه نجاح، ولا يستفاد معه من فشل..!!

من هنا، فانه حتى لو عادت عصورنا الذهبية – وقد كانت ذهبية في بعض جوانبها وخربة في جوانب أخرى –، سرعان ما سيصيبها العطب، فالوسطية والعملية والغائية، ذلك المزيج العبقري، سرعان ما يطفئ بمائه شرارة التطرف الخلاق..

فالمهم برأي كهنة هذا المزيج هو العيش..ولو كان أسوأ من الموت!

ثمة حاجة ماسة لتخلى دارسي حضارتنا عن دأبهم في الاكتفاء بلوم الأجيال المتعاقبة لتفريطها في ميراثها الحضاري! والتباكي على عصور ذهبية، تستعاد حتما – من وجهة نظرهم –، بمزيد من الانحشار في خصائص حضارتنا والمسالمة التامة.

ما نتصوره خلاصا، هو – وتلك هي المفارقة – مقتل حضارتنا الإسلامية.

(10)

هجمات 9/11: ذكرى التمرد على أسطورة الاستقلال

للأسطورة الرديئة مذاق طيب في الفم العربي، وهو ما يفهمه الغربيون – خاصة الأمريكيين – جيدا! من هنا، عمدت القوى العظمى، بعد أفول عصر الاستعمار الأوروبي التقليدي، إلى التأسيس "الأسطوري" لاستقلال أوطاننا الثائرة.

مجتمعاتنا استيقظت فجأة – كالعادة – على مزاج التحرر الوطني الثوري، وهو يتحول بين عشية وضحاها، وعلى يد أساطير محلية، محبوكة النسج، إلى حكم عسكري – مطعم بملكيات استبدادية –، يبشر بعصر استقلال الشعوب! ويناهض الغرب الاستعماري، وسط حملات دعائية مسعورة، يزيدها تأججا مهاجمة الغربيين لهذه الأساطير المحلية، على مرأى ومسمع من شعوب متعطشة للكبرياء الوطني!

عبقرية السبتمبريين تكمن في تفردهم دون بقية أبناء مجتمعاتهم، بالرغبة في والقدرة على تحطيم الأساطير المحلية، وإزاحة الستار عن الرجل الأبيض، صانع الأساطير الرديئة، وحامي الحقائق بالأكاذيب! عبقريتهم أيضا تكمن في قدرتهم على تعرية زيف استقلالنا الوطني، وأن الرجل الأبيض هو من "يحكم من وراء ستار"!

أقول تفردهم، وأعني ما أقول. فأهل الرأي ومعاهدنا التعليمية ومراكزنا البحثية..الخ، كل هؤلاء تعايشوا مع الأساطير المحلية، ومن ثم سلكوا في أبحاثهم وآرائهم ما زاد الطين بله! كونهم لم يتطرقوا للأسطورة، لكشف سرها، واكتفوا بانتقاد سلوكيات وتصرفات وسياسات..الخ، على نحو أراح الأساطير المحلية، وصناعها.

نتيجة ذلك ما نراه اليوم من تخبط وارتباك، وقتال في الجانب الخطأ! الرجل الأبيض سمح لنا بالوطنية وضن علينا بالحرية، فأصبحنا هيكلا خاويا! أدرك هذا السبتمبريون، فذهبوا بيأسهم وضعفهم إلى ديار الرجل الأبيض، وشنوا هجماتهم..

المدهش أنه سرعان ما جاء الرد! حكم بالإعدام – شديد القسوة – على دولة العسكر– المطعمة ببعض الملكيات الاستبدادية – واستبدال دولة إسلام سياسي بها!

الغرب يريد دولة الإسلام السياسي رصاصة رحمة لحضارتنا الإسلامية، ونحن نتمناها – مع الإقرار ربما باستحالة ذلك – طوق نجاة لنا، وللأجيال القادمة.

(11)

تجربة العيش في مجتمع فاسد

مفاجأة الربيع العربي أن الشعوب لا تقل فسادا عن الأنظمة الحاكمة! وأن فساد الأنظمة أهون كثيرا من فساد الشعوب، فهو عار مفضوح، في حين أن فساد الشعوب، يستره إجماع الناس عليه، حيث يبدو إرادة شعبية. من يتصدى لها، يصير مستباحا.

والسؤال: هل يصبح الفساد مشروعا حين يجمع الناس عليه؟!

ما نراه اليوم هو اجتماع الناس على باطل، إنها "جاهلية أخلاقية"، لا تجد من يتناولها بالبحث والدراسة، فالمنوط بهم القيام بذلك هم في طليعة قوى الفساد العاتية!

أنا حاصل على درجة دكتوراه الفلسفة في العلوم السياسية، وليتني ما فعلت! ما نحصل عليه من شهادات مجرد أوراق، فاقدة للمعنى والقيمة، وإلا فكيف أفهم أن تضم أوساطنا التعليمية سماسرة وباعة ومرتزقة، ينخرون فيما تبقى من أطلال..

تشعر وأنت ترقب أحدهم أنه نخاس، لا علم عنده ولا نخوة ولا مروءة.

الفساد الشعبي ظاهرة ما أظنها وجدت في غير حضارتنا، و لا أدري ما إذا كان بإمكان شعب فاسد أن يتمرد على نفسه! أغاني وكتابات مدح الذات، منتشرة بغزارة في ثقافتنا، وكتابات جلد الذات، ليست ضد فساد المجتمع، بل هي دون ذلك!

أجواء الفساد الشعبي أفرزت وصايا تتوارثها الشعوب الفاسدة، تحض في مجملها على اللف والدوران وادعاء الغباء والفهلوة..إلى غير ذلك من أوحال. مجتمعاتنا أقرب لجحور فئران منها إلى تجمعات بشرية. ولشد ما تمنيت أن أعيش عيشة كريمة، وأن أنفض عن نفسي وصايا آبائي وجدودي [من يجبن يسلم]. لشد ما تمنيت أن أعيش بعيدا عن جاهلية أخلاقية، تجرد الحياة من مغزاها، وتحيلها عبثا..

(12)

الخروج من الجاهلية الأخلاقية

لا أعتقد أنه سيكون بمقدور الاسلام السياسي – حال اكتمال قيام دولته، وهو ما أتوقع حدوثه – قيادة مجتمعاتنا بسهولة إلى خارج حدود الجاهلية الأخلاقية، ربما لانحشار منظريه في خبراتهم الدعوية الكلاسيكية، فضلا عن قناعتهم الراسخة بامكانية استنساخ بعض اللحظات المضيئة في تاريخ حضارتنا الاسلامية، دون الأخذ في الاعتبار تعقد وتشابك اللحظة الراهنة.

الاسلام السياسي شريك – دون وعي على الأرجح – لدولة العسكر في الوصول بمجتمعاتنا إلى الجاهلية الأخلاقية. ففي الوقت الذى حكم فيه العسكر مجتمعاتنا بالحديد والنار لعقود عديدة، كان الاسلام السياسي هو الخصم الطامح إلى والعامل على تحرير المجتمع من نير العسكر واقامة دولة الاسلام السياسي. في ظل تغييب كارثي للأوجه الأخرى لحضارتنا.

الاسلام السياسي واجه في رحلة نضاله – والتى لا تخلو من روعة –، دولة العسكر بديماجوجيتها ومغازلتها لأدنى ما في الشعوب من غرائز، ومن ثم وجد نفسه مقيدا في مساعيه الثورية، بالتركيز على حيوات ظاهرة مضللة، يعلم انها

كذلك، وهو ما استراحت إليه شعوبنا وأكسب دعوته أرضية واسعة..مجتمعاتنا وظفت دولة العسكر والاسلام السياسي بعبقرية..

العسكر هم السيادة الصلبة وسلطة الأمر الواقع، والاسلاميون هم قاطرة السيادة الناعمة، يبارك رموزهم – في ثقة وقوة – تمزق مواطنيهم بين حياتين، احداهما مستترة والأخرى علنية، في مواجهة عشوائية وفهلوة العسكر. فضلا عن تبشيرهم بحتمية اصلاح "الظاهر" لـ "الباطن"!

أكسب هذا الاسلاميين بالطبع شعبية – كما أسلفت –، غير انها شعبية مترهلة هشة، نظرا لعدم استنادها لبنية تحتية أخلاقية صلبة، تضرب بجذورها في أعماق الضمير البشري.

الطريف، بل لنقل الكارثة، أن ما اجتهد الاسلاميون طيلة عقود في تصديره إلى المجتمع، وما احتفوا به من حيوات ظاهرة مغلفة برقائق التدين، سرعان ما ارتد إلى الاسلام السياسي نفسه، فنال على ما يبدو من بنيته التحتية وكوادره. تلك هي محنة الاسلام السياسي.

الاسلاميون ليسوا بمعزل عن جاهلية مجتمعاتنا الاخلاقية، وإن زعموا خلاف ذلك، فهم تحت وطأة القهر العسكرى والحرص على استمالة الشعوب لجانبهم، هادنوا مجتمعاتهم ورضوا من ابنائها العيش في حياتين، القشور الأخلاقية، وهو ما انتهى بالجميع إلى جاهلية أخلاقية.

(13)

دولة الإسلام السياسي: الطموح الحاضر والاستراتيجية الغائبة

ثمة دولة وليدة تلوح بوادرها في الفضائين العربي والاسلامي، تستند في صعودها إلى قاعدة صلبة من الأنصار، يزيد من حماسهم ترنح الأنظمة القائمة تحت وطأة ضربات الربيع العربي، وتخلى الغربيين – لاعتبارات خاصة بهم – عن هذه الأنظمة الهرمة. بيد ان الخلل الرهيب في دولة الاسلام السياسي الوليدة، هو افتقارها لرؤية استراتيجية واعدة، بمنأى عن الوهم والشعارات الجوفاء، تمكن لها في الداخل والخارج، على نحو قابل للتخصيب وادامة النجاح.

أولى ركائز هذه الاستراتيجية الغائبة هو وجوب التعامل غير العشوائي مع الأنظمة القائمة، والتى تستند في مقاومتها للزوال إلى دولة عميقة شديدة الترهل والفساد، يصعب النيل منها بالفهلوة، فالطامح إلى احتوء هكذا بيروقراطية أقرب إلى الغرق في أوحالها منه إلى السيطرة عليها وتطهيرها. النموذج المصري خير دليل، فقد فشل الاسلاميون في التعامل مع البيروقراطية المصرية. غرقوا في أوحالها، قلدوا سلوكياتها، استسلموا لاغراء فكرة التمكين على خطورتها. ظنوا أن قرابتهم اللصيقة مصدر قوة في الحكم كما في أوقات النضال والمقاومة!

ركيزة أخرى ليس بمقدور الاسلاميين تجاهلها والقفز فوقها، وهي حتمية قيادة مجتمعاتهم لخارج حدود الجاهلية الأخلاقية، ليس بطرائق الوعظ التقليدية، فالأمر تجاوز في تعقدة وتشابكه مثل تلك الوسائل البريئة. وإنما بتفكيك جريء، وتشريح قاس لتجربتنا الحياتية، خاصة في ظل الأنظمة القائمة، مع ضرورة مراجعة الاسلاميين أنفسهم لدورهم في المشهد الأخلاقي، فاسهامهم قوي في صياغة الوجدان الأخلاقي، وتغاضيهم تم عن الكثير، في مقابل الاحتضان والحشد.

الحضارة الاسلامية تلهث على شفا الافلاس! أضحت فاقدة تماما للقدرة على الابداع والابتكار، وهو ما يستصرخ الاسلاميين تضمين استراتيجيتهم الغائبة هذه الاشكالية المؤرقة، واقتراح حلول خلاقة، ربما تفرض عليهم حماية ما يبغضونه، أعني التفكير الفلسفي، فلا سبيل برأيي أمام الاسلاميين سوى السماح بطرائق اخرى من التفكير، لا بديل أمامهم عن المخاطرة والألم. يعيد هذا لحضارتنا رحابتها ويفتح المجال أمام بروز صفوة فاضلة وذوى النظر البعيد.

ركيزة أخرى تستحق الاهتمام الشديد، وهي عدم استساغة الوجدان الشعبي لفكرتي الحرية والحقيقة، فلا معنى للحرية ولا حب للحقيقة، على الأقل لغير المريح منها! الحرية والحقيقة هما الحاضر الغائب، الكل يذكرهما ويمجدهما، بيد أنهما – لشعوبنا – كالسراب، محض وهم..

تلك كانت بعض ملامح الاستراتيجية الغائبة لدولة الاسلام السياسي/الخلافة الاسلامية، أختمها بالملمح الأكثر ايلاما وهو تسيد الحضارة الغربية للحياة، فلا يكاد المرء يفكر في أمر إلا ويكتشف أن الغربيين قد سبقوه إليه، لا يكاد المرء يسلك طريقا إلا ويكتشف أن الغربيين قد مروا منه، فلا يملك إلا التقليد والمحاكاة، وهو ما تضطر اليه مجتمعاتنا بعد الكثير من الجدل العقيم والنقاش حول مدى المشروعية والجواز. الغربيون هم النموذج والمشكلة بالنسبة الحضارتنا ولغيرها من الحضارات. تشعر وأنت ترقب ما يحدث في الأرض وفي الفضاء أن الحياة لم تخلق إلا لهم. أن الجرأة لم تخلق إلا لهم. الحرية أصبحت غرب. والحقيقة أصبحت غرب..

(14)

روما الجديدة: امبراطورية قوى السوق الكونية

ما يحدث في مجتمعاتنا، من تخبط وارتباك – مثيرين للشفقة –، مصدره جهل السواد الأعظم من أبناء مجتمعاتنا بالتحول الكوني الراهن، وهو جهل تغذيه دولة العسكر وأنصارها، على أمل اطالة عمرها لأبعد مدى ممكن، فضلا عن خشية الاسلاميين من تعرية الحقيقة نفسها، لضعف ثقتهم بالشعوب، وقناعتهم بأفضلية عدم معرفتها لما يزيد عن حاجاتها اليومية.

نحن نعيش في عصر العولمة!! نحن مواطنون في جمهورية، أو لنقل امبراطورية، قوى السوق الكونية. انها روما الجديدة، السوق فيها هو السيد، والمواطن فيها هو المستهلك. انها دولة افتراضية، الرأس يوجد حيث عاصمة قوى السوق الكونية – الولايات المتحدة الأمريكية –، أما الجسد فمترامي الأطراف، انه العالم بأسره، بقاراته المختلفة، وحضاراته وثقافاته المتعددة.

لم يعد ثمة معنى للحدود!! المواطنة العالمية تعني أن الدولة – الأمة وما يرتبط بها من أمور، لا مستقبل لهما! غير أن ما يؤسف له كثيرا هو أن فكرة الدولة – الأمة تغادرنا ولم نستفد منها، ندفع اليوم بعيدا عنها، وقد أصبحت محض أوحال. أفهمنا

العسكر أن الدولة لا تتجاوز ولا ينبغى لها أن تتجاوز تخوم الوطنية المتشنجة المعادية للحرية وهو ما أورثنا فشلا وفسادا.

الاسلاميون هم الأكثر التصاقا بخصائصنا الحضارية، يجعلهم هذا من ناحية الأكثر تضررا من افلاسنا الحضاري، ومن ناحية أخرى يجعلهم هذا الخيار الأفضل حاليا، لضمان وقوف حضاراتنا ومجتمعاتنا وجها لوجه أمام أوجاعها وآلامها، بعيدا عن التبريرات الكلاسيكية، بأن ما نعانيه محض عرض، يختفى فور استعادة الماضي والانحشار في الميراث الحضاري.

(15)

الرجل الأبيض والقيادة بالأسطورة

ابحث عن الأسطورة! فللأسطورة دور خطير في احكام قبضة الرجل الأبيض على مجتمعاتنا. الرجل الأبيض دارس جيد لتاريخنا، ومن ثم ناسج بارع لأساطيرنا المحلية. أسطورة الاستقلال الوطنى خير شاهد على هذه البراعة. فقد أعقب وفود فكرة القومية لمنطقتنا ظهور نزعات للاستقلال الوطني، بلغت فيما نعلم حدا ثوريا أزعج الغربيين. وهنا تفتقت العبقرية الغربية عن أسطورة الاستقلال وجعلها مصدرا لمشروعية الأنظمة الحاكمة الوليدة – حينها –.

أسكروا الشعوب المتعطشة للكبرياء بنشوة الاستقلال الوطنى، فلم تنتبه إلى حيلة افراغ الأنظمة الحاكمة للاستقلال الوطني من مضمونه، وهو الحرية والعدالة والكرامة الانسانية..

يالها من فكرة عبقرية! انه الرجل الأبيض وقدرته على نسج الأساطير المحلية وتوطينها على نحو شديد الدربة. الاستقلال الوطنى أصبح بفضل حيلة الرجل الأبيض غاية في حد ذاته، غاية لم تتورع الأنظمة الحاكمة الوليدة – والمدعومة

وقتها من الرجل الأبيض – عن استخدامها لتبرير تجفيفها غير المسبوق لمنابع الحرية وتضييقها الشاذ على الأجساد والأرواح والنفوس.

الرجل الأبيض يكرر الآن الحيلة نفسها، وإن اختلفت الأسطورة هذه المرة!! اختيار الرجل الأبيض استقر على الخلافة الاسلامية لتصبح أسطورة "ما بعد هجمات 9/11".

الخلافة الاسلامية أمر عظيم ونبيل، شأنها شأن الاستقلال الوطني من قبل، غير أن ما يثير الريبة والشك هو ما نرصده من حفاوة الرجل الأبيض بافراغها من مضمونها، وتصييرها مجرد آلية لتحرير الأسواق، وفتح مجتمعاتنا أمام قوى السوق الكونية الُمستترة..أمام العولمة..

يعضد وجهة النظر هذه افلاس الاسلام السياسي وعجزه، حتى عن مجرد جذب الشعوب بعيدا عن الأنظمة القائمة. فضلا عن تدخل عاصمة قوى السوق الكونية لنصرة الاسلام السياسي، دون ايلاء أى اهتمام بعشوائية وفهلوة، يشترك فيهما الاسلام السياسي مع العسكر.

والسؤال: هل تقوى مجتمعاتنا على تجنيب الخلافة الاسلامية مصير الاستقلال الوطني؟ أو بعبارة أخرى: هل تقوى مجتمعاتنا على صون الخلافة الاسلامية

وضمان عدم تحولها لأسطورة رديئة، يوظفها الإسلام السياسى لقيادة شعوبنا في رحلة جديدة على طريق الآلام..؟

(16)

الهرولة إلى الاستقرار

الجميع في بلادي، أعني مصر، بما فيهم أنصار دولتي العسكر والاسلام السياسي، يلهثون في اتجاه الاستقرار، ولولا تعارض المصالح – ولله الحمد – لاتفقوا علينا، ومات الأمل! لعدنا إلى استقرار مشبع بالخراب، لطالما عانينا ويلاته، تحول بيننا وبينه اليوم سيولة اجبارية، تعيشها مجتمعاتنا والتى هي أصلا مستنقعات راكدة، تخلو من كل شيء، عدا الركود والسأم!

رؤيتى هذه يؤكدها – مثلا – اقبال العسكر والاسلاميين على توظيف عبارة الشيخ الراحل متولى الشعراوي: [الثائر الحق هو الذى يثور ليهدم الفساد ثم يهدأ ليبني الأمجاد]. حد علمي أن الشيخ أطلق عبارته هذه لتهدئة ما بدا له يومها نذر ثورة ضد نظام الحكم. غير أن أُمضحك في الأمر هو تناوب العسكر والاسلاميين على العبارة، وفقا لمقتضى المصلحة..!

كنت في زيارة لاحدى القرى الريفية، حيث يحتفظ الاسلام السياسي بمخزون استراتيجي من التعاطف والأصوات الانتخابية، لمحت على أحد أعمدة الانارة

"بوستر" قديم للدعاية الانتخابية، يحمل صورة مرشح اسلامي، مشفوعة بعبارة الشعراوي عن توصيف الثائر الحق.

أعاد هذا لذاكرتي حرص الاسلاميين ابان الانتخابات البرلمانية ما بعد ثورة 25 يناير المجيدة على الهرولة إلى الاستقرار، دون حرث الأرض وتطهيرها، من باب بشر ولا تنفر، واستعانتهم في سبيل ذلك بعبارة الشيخ الشعراوي، عبر كتابتها على كل ما تصل إليه أيديهم.

تصرفهم هذا ألحق الضرر بشباب ثورة 25 يناير، وأجهض الشرعية الثورية. وها هم العسكر اليوم يفعلون ما سبق وفعله الاسلاميون، حل دور العسكر على ما يبدو في التناوب على عبارة الشيخ، أجهزة اعلامهم ترجع صداها، في ظل سكوت الاسلاميين عنها، بينما الشباب في حيرة إزاء تسبب الاسلاميين بقصر نظرهم في الباس انقلاب عسكري ثوب ثورة!

(17)

الفساد في مصر: طبيعة حمائية وقابلية للاستدامة

للفساد المصري – ولا أدري مدى انطباق هذا على شركائنا في الثقافة – طبيعة حمائية، لا أظنها متاحه لغيره، على الأقل بنفس الصقل والحبكة. فلا تكاد تفكر في الفساد المصري إلا وتجد نفسك أمام كتلة متشابكة من الخيوط الدقيقة، تجد نفسك أقرب إلى اليأس منك إلى الرجاء، تجد نفسك أقرب إلى الضحك الساخر منك إلى البكاء. وسرعان ما تتمتم: ما كل هذا العفن الأخلاقي؟! لم يقنع الفساد في مصر على الأرجح بما يقنع به نظيره في سائر المجتمعات، فأحاط نفسه بدروع واقية، أكثرها خطورة "حاضنة شعبية"، قد لا توجد خارج هنا!

في مقالة سابقة تحدثت عن فكرة الحاضنة الشعبية للفساد، وخلصت إلى القول بجاهلية أخلاقية تعيشها مجتمعاتنا، تتجاور جنبا إلى جنب، مع القيم العليا والعقائد الموروثة، في سلام مُشبع بالقداسة، لا تؤرقه – إن لم تكن تحض على توقيره – خصائص حضارية، بمأمن من التفكيك والتخريب الخلاق، في ظل تجفيف منابع التطرف والطرائق "غير الفقهية" في التفكير.

الأمر إذن شديد التراكم والتعقيد، والحاضنة الشعبية لا بديل عن اختراقها وتدميرها، كي لا تجد الجاهلية الأخلاقية ملاذا آمنا، ويتسنى للثوار "الأخلاقيين"

اصطيادها. الشعب هو من يُنتج الجاهلية الأخلاقية ويغذيها ثم يعود ليتأثر بها! دائرة مُفرغة جهنمية لابد من كسرها، ولنبدأ بأضعف حلقاتها، وهي البيروقراطية المصرية، كونها تتآمر على مُناهضي الرداءة والركود..

هذا على المدى القصير، أما على المدى الطويل، فلنشرع في ايقاف كارثة التجفيف المنهجي لمنابع التطرف والخروج عن السياق المجتمعى العام، عبر السماح بطرائق فلسفية وعلمية في التفكير. الاسلاميون مهما بلغ نقاء الكثيرين منهم وحسن القصد، لن يقدروا بطرائقهم الفقهية في التفكير – وحدها – على بلوغ أحلامهم في خلافة إسلامية غير فارغة المضمون.

دليل ذلك مُعاناتهم اليوم في مواجهة دولة العسكر الهرمة والفاسدة، العسكر ليسوا أقوياء، وإنما الشديد الضعف هو الاسلام السياسي، لعدم امتلاكه قوة الخيال! فلا اطلاع لكوادره على التفكير الفلسفى، ولا استفادة من القوة الناعمة للفنون الراقية، ولا تخلص من رهاب الفشل والخطأ. الاسلاميون لا يستوعبون محنتهم ومحنة أبناء حضارتنا: [ما بداخلنا لا يريد الحقيقة]!

(18)

محاولة لتشريح فكرة

الإخوان المسلمون: "هيئة إسلامية جامعة، تحمل مشروع اليقظة في العالم الإسلامي كله"، هذه هي فكرة جماعة الإخوان كما وردت في موقعها الرقمي الرسمي. الفكرة خطيرة، غير أنها – برأيي – لم تحظ بالدراسة الكافية من جانب باحثينا، عكس الحال مع باحثى الغرب، فجامعات الغرب تذخر بدراسات أكاديمية، لا تترك صغيرة وكبيرة في الجماعة إلا وأحصتها!

الناس عندنا – حتى مفكرينا وباحثينا – مشغولون بالأحداث اليومية والسلوكيات الإخوانية، فتجدهم إما كاره لها كراهية التحريم، وإما مُحب لها مُدافع عنها بالحق والباطل. والنتيجة الحتمية ما نراه، خاصة على الفضائيات والمواقع الرقمية من عراك الديوك، وهو مشهد كاشف للعجلة والمصلحية، على خلاف ما يُعتقد. من يُرد الفهم يبحث عن "الفكرة التأسيسية".

الفكرة التأسيسية لجماعة الإخوان المسلمين تحتاج لدراسة مُكثفة وعميقة، وما أحاوله هنا – مجرد – إطلالة سريعة في شعاب الفكرة، على أمل تطوير لاحق، والتنبيه لخطورة الفكرة.

ماذا أراد حسن البنا بجماعته؟ سؤال تفتح الإجابة عليه أروقة النقاش. الثابت هو أن الراحل حسن البنا درس تجربة النبي محمد وكيف نجح في خلق نواة صلبة لمجتمع جديد، سرعان ما زاد عدد أفراده على نحو مُذهل، وتوسع ليضم أراض وشعوب خارج شبه الجزيرة العربية. وجد البنا في عبقريته دعما لحلمه وسعيه النبيل للملمة حبات عقد الخلافة المنفرط.

السؤال اللاحق: هل انتبه البنا لاختلاف ظروف التجربتين، أعني النبوية والاخوانية؟

النبي محمد بدأ المجتمع الإسلامي من نقطة الصفر، حيث لم يكن له وجود قبلي، أما البنا فقد سعى ليس للبدأ من نقطة الصفر، وإنما لإيقاظ المجتمع الاسلامي القائم ولملة حبات عقده المنفرط، فقد تزامنت جهود البنا مع انهيار الخلافة الاسلامية واقتسام الغربيين لأراضيها الشاسعة. أهداف إخوانية نبيلة لا خلاف، لكن المأزق هو عدم مراعاة البنا لاختلاف ظروف تجربته. بدا ذلك واضحا في مُحاكاته للتجربة النبوية وتجاهله لما سينشأ لاحقا من إزدواجية.

حدث هذا بالفعل، إذ سرعان ما بدأت المناوشات ثم الصدام الصريح بين المجتمعين، الإخواني الوليد وكيانات المجتمع القائم/القديم. رحل حسن البنا ولم يجد أو بمعنى أصح لم يُمهله الزمن لعلاج هذه المعضلة، معضلة تحول المجتمع الاخواني الوليد لمجتمع "مواز"..

التطورات اللاحقة ساهمت في تعقيد الأمر، وليس التخفيف من حدته. فقد أعقب إغتيال حسن البنا خضوع العالم الاسلامي، بما فيه منطقتنا، لأنظمة عسكرية وملكيات مُستبدة، عملت – ولاتزال – على تجييش المجتمع القائم بقوة ضد مجتمع الاخوان "المواز". أسفر ذلك عن:

[1] نزوع المجتمع الاخواني للتقوقع على الذات وسعيه لبلوغ الاكتفاء الذاتي، حتى يستطيع الصمود، فعناصره – أو معظمها – مُضطهدة ومحرومة من الالتحاق بالمؤسسات الرسمية. [2] سعى المجتمع الاخواني لاكتساب حاضنة شعبية، على حساب أمور كثيرة، لعل أخطرها تجاهله لجاهلية أخلاقية يحياها المجتمع القائم، بل وربما تورط المجتمع الإخواني – بوعي أو بلا وعي – في تقديم الغطاء الشرعي لها، من خلال إفراط رموزه وحلفائه – من الدعاة والوعاظ – في إشاعة أن الظاهر كفيل بإصلاح الباطن، وإلا فكيف نفسر التدين الشديد والانحطاط الأخلاقي. [3] افتقاد المجتمع الاخواني لقوته كقاطرة أُريد لها إيقاظ المجتمع وإحياء همم أبنائه الساقطة، فحظ المجتمع الإخواني من الابداع والخلق، قد لا يُجاوز الصفر بكثير.

بعد هجمات 11 سبتمبر تخلى الغربيون عن الأنظمة القائمة وأبدوا عدم ممانعة بل وربما أيدوا وصول الإسلاميين إلى الحكم. جماعة الإخوان المسلمين هي الأعرق بين حركات الإسلام السياسي، ومن ثم يأتي صعودها الرسمي وبالتبعية صعود الاسلام السياسي منطقيا إلى حد كبير. فهم بحق الوجه ربما الوحيد الحي لحضارتنا، بفضل حماقة العسكر وقصر نظرهم.

أوصل الصعود الرسمي لجماعة الاخوان – ومن ورائها بقية حركات الاسلام السياسي – أوضاع مجتمعاتنا لحافة الهاوية! فنُذر الحرب الأهلية في كل مكان. أو بعبارة أخرى: كيانات المجتمع القائم/القديم في مواجهة المجتمع الاخواني "المواز". المجتمعان ضعيفان، ومن هنا تصنع المحددات الدولية والاقليمية الفارق، وهي بوضوح في صالح صعود الإسلام السياسي.

الاسلاميون – وغيرهم من المفكرين غير الاسلاميين – عليهم واجب الترفع عن تفاصيل الأحداث اليومية، ومناقشة كيفية صياغة قواعد جديدة داخلية للعبة في مجتمعاتنا ما بعد دولة العسكر، فنحن أبناء حضارة واحدة. ونجاح الاسلاميين – إن هو حصل، رغم تضاؤل فرصه – نجاح لحضارتنا العريقة. لنناقش كيفية مساعدة المجتمع الاخواني "المواز"، على الخروج من قوقعته، فلم يعد ثمة حاجة للتقوقع، ولنناقش التداعيات المحتملة لهكذا بنية إخوانية داخلية على السلطة في بلادنا، فروابط القرابة والمصالح المشتركة والمُشترك الأيديولوجي، لن تكون مُفيدة للجماعة ولا لمجتمعاتنا ونزاهة الحكم فيها، كما كنت مُفيدة للجماعة في أزمنة الاضطهاد..

لنناقش محنة الجاهلية الأخلاقية في مجتمعاتنا وكيفية الخروج منها، خاصة وأنها على ما يبدو تسللت إلى حركات الاسلام السياسي نفسها، وهو ما يستلزم تطعيم حضارتنا بطرائق جديدة للتفكير، في مقدمتها التفكير الفلسفي. لنفتح رئات جديدة في صدر حضارتنا المخنوق.

(19)

من السلوك الثوري إلى التفكير الثوري

في تصريح صحفي قرأته مؤخرا لمؤسس حركة شباب 6 أبريل المصرية، أبدى أحمد ماهر قلقه الشديد إزاء تنامي مناخ الخوف في مصر، على خلفية الانقلاب العسكري في 30 يونيو، وانصراف الكثير من الشباب عن العمل الثوري. وأكد حتمية البدء من الصفر تقريبا!

كلام مهم جدا، ليس فقط في كشفه لاحتمال اندلاع موجات ثورية أخرى في بلادنا، وانما أيضا لاقرار صاحبه، وهو قيادة ثورية بارزة، بأن ما شهدته بلادنا في 25 يناير محض سلوك ثوري، انتهى بمجرد انتهاء التحريض الثورى، وارتداد أصحابه إلى مسارهم المعتاد في الحياة.

من هنا، يبرز الفرق بين السلوك الثورى والتفكير الثوري.

السلوك الثوري مشروط بتوافر الأجواء الثورية والمحرضات الثورية..الخ، على خلاف التفكير الثوري الذى يعنى تجذر السلوك الثوري واستدامته، استنادا للتوليد الثورى الذاتي، في داخل عقل وقلب صاحب السلوك الثوري.

غياب التفكير الثوري عن مجتمعاتنا أمر طبيعى، ربما لتعارضه مع طبيعة التفكير الفقهي الذى يسمح تحت الحاح الضرورورة العملية بالسلوك الثوري، وإن كان لا يستريح له كثيرا، ويعمل على انهائه في أسرع مدى ممكن. وهو ما يفسر لنا ذيوع عبارة الشيخ الشعراوي: [الثائر الحق هو من يثور ليهدم الفساد، ثم يهدأ ليبني الأمجاد]

مجتمعاتنا لا غناء لها عن السماح بالتفكير الفلسفى ومعاهده المتخصصة، فمبقتضى هذا التفكير يصبح التمرد والجرأة في مواجهة الحياة سلوكا مستداما وليس قاصرا على أوقات التحريض الثوري. وباستدامة السلوك الثوري يصير الانسان "فضيلة ومعرفة" تمشي على قدمين، أولئك هم الفلاسفة، أو الصفوة الفاضلة والتى لا غنى للمجتمعات عنها، فلنسمح بوجودها ولو على غير ما نحب.

المخاطرة والألم سلاح مجتمعاتنا لاقتحام الأفق المسدود..

(20)

شبابهم وشبابنا

شبابنا قردة في أقفاص "رقمية"، وشبابهم صقور تحلق في فضاء الحرية الرحب، لا يعرفون أفقا مسدودا ولا يطيب لهم سكن الجحور وأخلاق الفئران. شبابهم قادة المستقبل وشبابنا مستهلكو المستقبل، لا حيلة لهم سوى اللهاث على شفا الرقمية، وتتبع ما يقذف به طوفانها. شبابهم لا يعرف الخوف وشبابنا محاط بخطوط وهمية، تشيع الآخرية عنها أساطير وأساطير!

الكثيرون عندنا لا يعرفون كيرميت روزفلت أو جارد كوهين أو غيرهم الكثير من الشباب الأمريكي المستتر، الكثيرون لا يعرفون شيئا عن هؤلاء الرواد "حماة الحقائق بالأكاذيب"، رغم ارتباط مصائرنا – الى حد كبير – بأفكارهم وقدراتهم غير العادية في فهم واستنطاق أوضاعنا الحيائية وتوجيهها إلى حيث النفع لبلادهم وحضارتهم، ولو على حساب تكريس حيواتنا الذليلة.

كيرميت روزفلت أحدهم وقد زار بلادنا في أعقاب انتهاء الحرب العالمية الثانية، ضمن جولة شرق أوسطية، خلص منها بفكره الثاقب إلى حتمية استبدال حكم عسكري فاشي بحكم فاروق غير الجاد، في مواجهة خطر الشيوعية والمد الوطني

الثوري. كيرميت هذا باحث راق واستخباراتي شهير، يعرفه أولو أمرنا ممن عاصروه من جيل ناصر وهيكل. نصب لهم بعبقريته سيركا، وغادرهم يؤدون حركاتهم البهلوانية، وسط انبهار شعوبهم الساذجة وصيحات المباركة. روزفلت هذا لم يفكر باحث مصري أو عربي حتى اليوم – رغم تعدد معاهد وكليات دارسي العلوم السياسية والتاريخ – في ترجمة أيا من كتبه، على أهميتها ودورها شديد التأثير.

صاحبنا الآخر هو جارد كوهين الذى لا يختلف كثيرا عن مواطنه روزفلت في الدهاء والمعرفة، سوى خروجه من عباءة عصرنا الرقمي، حيث جاء بأفكاره ليأخذنا إلى حيث يراد لنا أن نذهب على أجنحة الرقمية. أفكار كوهين وزملائه حولت شبابنا إلى محض قردة في أقفاص رقمية. حسابات الفيس بوك وتويتر..الخ مجرد جلسات فضفضة ونفى الفكر وتحريض أحيانا.

فكرة الجهاد عند كوهين مرنة وقابلة لاعادة التوجيه، لتصبح معول هدم لدولة العسكر التى لطالما حظيت لعقود وعقود بدعم آبائه وجدوده، حتى أن أجيالا نشأت في العالم العربي تظنها قدرا محتوما، ويصيبها الغثيان عندما يصدمها أحد بأنها لا تعدو أسطورة قابلة للكسر!!

خروج شبابنا من أقفاصهم الرقمية مرهون بقبضة مضمومة ونفس ترنو للأفق الرحب.

(21)

الأنسني والاستعلاء بالتمرد

التمرد فضيلة لا ينكرها إلا ساقط الهمة! ولشد ما يؤلمنى فزع أبناء مجتمعاتنا من هكذا فضيلة راقية، بل وتماديهم في اعتبارها استهانة بما ألفوه من خطوط وهمية. خطوات قليلة للأمام تثبت لهؤلاء أن ليس ثمة ما يعوق السير، الأرض تزهو بخطو المتمردين على أديمها.

اكتشاف كهذا، يحدث حال وقوعه، زلزالا عاتيا، تتهاوى على أثره كل بناياتنا الخائرة، لن تصمد حينها سوى البنايات جيدة الأساس. الحرية ليس ضروريا أن تقود مجتمعاتنا إلى حيث قادت من قبل اخوتنا الغربيين، الحرية تعنى القدرة على الخلق، لا الانتصار لخيارات جاهزة.

نفس الأنسني تحدثه دوما بأنه ليس ثمة ما هو أسوأ من حياة بلا تمرد..ليس ثمة ما هو أسوأ من الموتي الأحياء. فيظنه ساقطو الهمة متعاليا بتمرده، وهو ليس كذلك! كل ما في الأمر أنه أراد وجرؤ أن يكون حرا، فكان له ما أراد! مشكلتنا أننا ننشد الحرية في الميادين، وهي داخلنا! يكفى أن تقول أنا حر وتتصرف بمسئولية، حينها يتحقق لك ما تريد، هكذا ببساطة..

تجفيف منابع التطرف يئد بذور التمرد في مهدها، ويطلق العنان للركود والرداءة ينهشان جسد وروح مجتمعاتنا، على نحو ما نعانى اليوم. التطرف ليس كله شرا، ولا مفر من المخاطرة والألم. تجفيف منابع التطرف كارثي، ولننظر بنزاهة وموضوعية إلى الرمادية وما أورثته ايانا من أمراض عصية، فلا أشر من وسطية مستبدة، تحرم المجتمع من تطرف خصب خلاق.

(22)

الإخوان المسلمون: قواعد تُصلح بدمائها أخطاء القيادة

بانتهاء الحرب العالمية الثانية وانتهاء عصر الاستعمار الأوروبي وقع اختيار قوى عظمى على الأنظمة العسكرية – المطعمة ببعض الملكيات الُمستبدة – لملء الفضاء العربي، في مواجهة المد الشيوعي والمد الثورى الوطني. من هنا، تجرأ مؤسسو دولة العسكر في مصر– كما في غيرها – على تكريس الارهاب والخوف.

في مصر كانت جماعة الإخوان المسلمين رأس الذئب الطائر، ولا يمكن بحال لوم قيادات الإخوان المسلمين وقتها، فقد كانوا أنقياء لحد كبير، دفعوا بدمائهم الذكية ثمن رفضهم لقواعد اللعبة الجديدة – وقتها – وهي هيمنة الأنظمة العسكرية.

أما اليوم، أعني ما بعد هجمات 11 سبتمبر وعدم ممانعة القوى العظمى نفسها في صعود الاسلاميين لسدة الحكم في منطقتنا، فلا يمكن إعفاء قيادات الإخوان من ويلات يعاني منها الاسلام السياسي وغيره اليوم في مصر، فقد جاءت الحسابات خاطئة على نحو مرعب، سواء في خيبة صفقات القيادات الإخوانية مع فلول دولة

العسكر، أو في ركونهم إلى العناد والتكبر في مواجهة القوى الثورية غير الاسلامية، خاصة الشباب، وهو ما سهل مهمة الدولة العميقة في لدغ الاسلاميين.

ما نراه اليوم هو نفرة القواعد الإخوانية – مع غيرها من القوى الاسلامية الأخرى – تصلح بدمائها أخطاء القيادة! تعاطف شديد أستشعره إزاء دماء بريئة تراق بغير حق، ولشد ما أتمنى أن تجرؤ هذه القواعد، حين يحدث ما أتوقعه وغيري من عودة الاسلاميين إلى الحكم في بلادنا – بفضل محددات دولية وإقليمية وداخلية –، على مراجعة نسق القيادة القائم، فلولا أخطاء ساذجة وكارثية وقعت فيها القيادة لما اضطرت القواعد شديدة الحماس والغيرة لمواجهة آلة العسكر، بكل عجبها وقسوتها.

(23)

لن أنزل مع حضارتي في قبرها

حضارتي تحتضر، وحين تموت لن أنزل معها في قبرها! سأحيا بعدها أنسنيا، ولن أكرر أخطائها. حضارتي كرهت الحقيقة والأنسني يحبها. حضارتي خافت الحرية والأنسني يعيشها. حضارتي جعلت من المحظورات فيلا ورديا(*) يربك بإلحاحه البشر والأنسني يفضح الخيبة.

حضارتي أفرطت في توقير السلطة والأنسني يتحسس حريته أمامها. حضارتي أسلمت قيادها لصناع الأساطير الرديئة – أفكار كبيرة محشوة بالرداءة – والأنسني يناصبهم العداء.

لم تؤت حضارتي إلا مما اعتبرته موطن قوة وهو خصائصها والأنسني يتعهد خصائص حضارته بالتخريب الخلاق ولا يتهيب تقويض المشئوم منها. حضارتي أفرطت في تدليل الوسطية وأغرتها بالاستبداد والأنسني مولع بالتمرد الخلاق، رافض – بشدة – تجفيف منابعه.

حضارتي خافت الفشل واعتبرت النجاح عبئا ثقيلا والأنسني لا يفعل. حضارتي ظنت لله جلادا قاسيا والأنسني يحبه. حضارتي هزمت نفسها والأنسني ليس مهزوما مادام يقاوم.

حضارتي غالية، لكن الحياة واجب ومسئولية..

(*) تشبه قضية الجنس في الحضارة الاسلامية قصة قديمة حول تلميذ الساحر والفيل الوردي. إذ يُقال بأن أحد أساتذة الخيمياء(تحويل المواد إلى ذهب). وبعد أن شرح لتلميذه الخطوات المعقدة لصناعة الذهب. قال له: "وأهم أمر في العملية كلها أنه يتوجب عليك أن لا تفكر بالفيل الوردي". انذهل التلميذ لوقع هذا التحذير. وحاول دون جدوى أن يتقيد به. ولكنه كان - بالطبع - عاجزا عن أن يطرد الفيل الوردي من ذهنه. أخيرا استسلم التلميذ في محاولاته لصنع الذهب واقترب من أستاذه بحزن قائلا له: "لماذا يا سيدي؟ ما الذى دفعك إلى إخباري بأن لا أفكر بالفيل الوردي؟ فلو لم تفعل، لم أكن لأفكر فيه على الإطلاق". مصدر القصة: رافائيل باتاي، ترجمة على الحارس، العقل العربي، موقع شبكة عراق المستقبل www.iraqfuture.net

(24)

مظاهرات الطلبة ما بعد العسكر

أتمنى بعد رحيل العسكر وانتهاء عقود حكمهم أن ينهض الطلبة وما تيسر من شرفاء أعضاء هيئة التدريس بجامعاتنا بعبء إخلاء الفضاء الأكاديمي من خفافيش الرداءة والركود.

دولة العسكر لم يكن لها أن تستمر كل هذه العقود لولا براعتها في التمكين للرداءة والركود في فضائنا الأكاديمي، فهذا أستاذ يتواصل مع جهات أمنية ويمدها في نشاط وهمة بتقارير عن زملائه، وهذا أستاذ يجتهد في إدارة مافيا الدروس الخصوصية وشراء وبيع الرسائل الجامعية والأبحاث، وهذا أستاذ يبتز تلاميذه ويسخرهم لخدمة المصلحة والدناءة لا المعرفة والفضيلة، وهذا أستاذ يتباهى بعلاقاته بجهات سيادية، وهذا أستاذ يرى كل هذا العفن ويصمت. النوع الأخير هو الأخطر، وربما الأكثر عددا، وهو ما يعنى حرج موقف جامعاتنا وطلابنا.

المخيف هو إحتمال أن يظل أو حتى يتفاقم هكذا حرج تحت دولة الاسلام السياسي – حال قيامها –، فعناصر الاسلام السياسي في بلادنا متغلغلة في الجامعة وتعلم جيدا كارثية الأوضاع، ورغم ذلك لم نر أو نسمع عن تحريض هذه العناصر للطلاب على الثورة – مع إقراري بأهمية ما يحدث الآن – إلا حين لدغ العسكر في

مصر دولتهم الوليدة واعتقلوا رموزهم، وكل ما أخشاه أن يكون إسلاميو الجامعة قد أصبحوا جزءا من المشكلة، لا جزءا من الحل.

ما الحل إذن؟

نحتاج لثورة طلابية يحرض عليها ويقودها شرفاء الجامعة، بعيدا عن منطق القبيلة الأكاديمية وضرورة توقير أعرافها وتقاليدها. لا كرامة لأستاذ جامعى يصلي في مكان نجس، لا كرامة لأستاذ جامعى يتعامى عن ويسالم بدم بارد كل هذه الرداءة والركود، مهما تذرع بأسباب.

(25)

ثورة 25 يناير: عندما يكون الشعار محشوا بالرداءة

في ثورة 25 يناير برز فجأة شعار مدروس بعناية، وهو: [الشعب يريد إسقاط النظام]. خطورة هكذا شعار تكمن في اخفاء الطريق المرسوم والواقعي لثورة يناير وهو تقويض دولة العسكر – بمؤسساتها الفاسده – واستبدال دولة إسلام سياسي بها. لم يكن هدف ثورة يناير، وعلى خلاف الرائج، الاطاحة فقط بحكم مبارك، فهو مجرد امتداد لدولة العسكر والتى تحكم مصر منذ ما بعد الحرب العالمية الثانية، مبارك لم يكن مبتدعا وانما سار على خطى أسلافه.

[الشعب يريد إسقاط النظام]، شعار مدروس – حقا – بعناية فائقة، فالشعب بائس ولا قبل له بشعارات تنويرية، وقيادات الإسلام السياسي وفي طليعتها قيادات الاخوان لا يعنيهم في قليل أو كثير تنوير القطيع المصري البائس، أضف إلى ذلك حرص الغربيين على اخفاء دورهم القوي والحاسم في التمكين لدولة العسكر، وفي عدم ممانعة الصعود الراهن للاسلام السياسي.

النتيجة كارثية بطبيعة الحال، فشعار الثورة هو راية تتحرك الجموع تحتها وتهتدي بها، وهو ما حصل بالفعل، فقد استبسلت الجموع الهادرة في رفضها لحكم حسنى

مبارك، ووقع في ظنها أن وقوفه في قفص حديدي هو نهاية المطاف، وهي قناعة ربما عملت قيادات جماعة الاخوان المسلمين بانتهازية وقصر نظر على تعميقها، مستعينة في ذلك بعبارة الراحل متولي الشعراوي [الثائر الحق هو من يثور ليهدم الفساد، ثم يهدأ ليبني الأمجاد] في مواجهة القوى الثورية غير الاسلامية، وهو ما منح الدولة العميقة ملاذا آمنا وفرصة لالتقاط الأنفاس، لمعاودة لملمة الصفوف وترتيب الأوراق، ومن هنا كان طبيعيا أن تنجح الثورة المضادة في 30 يونيو.

والآن، وقد وجد الاسلام السياسي نفسه وقد أطيح به على نحو مهين وجرت اعتقالات واسعة لرموزه وأنصاره، بل وقُتل الكثير منهم في مواقع عديدة، لعل ابرزها وربما سيكون أكثرها تأثيرا على مجريات الأمور في بلادنا ما حدث في "رابعة العدوية"، حيث أُريقت الدماء بغزارة!

الآن، والآن فقط برز الشعار الأكثر تنويرية وجدية وهو: [يسقط حكم العسكر]. المشكلة أن تكلفة تأخر بروز هذا الشعار باهظة، ولا أدري أي ضمير يتحمل كل هذا التدمير وتلك الدماء الذكية. نحن نحتاج لجهد نقدي حقيقي، ليس يكفى وحده كل هذا التحريض والاستفزاز.

(26)

الاستقرار والثورة: خصمان أم شريكان؟

كلنا نذكر ما شهدته عقود حكم العسكر من مزايدة على الاستقرار واعتباره مبررا للقمع والارهاب في حق مناهضي الظلم والفساد. فباسم صون الاستقرار شرعنت ترسانة من القوانين السالبة للحريات، على امتداد منطقتنا، من المحيط إلى الخليج، فكلنا في الاستقرار إخوة!..

فكرة الوطنية – وهي فكرة كبيرة ونبيلة – تم حشوها بالرداءة ومن ثم فُرغت من مضمونها وهو الحرية لكل أصحاب الوطن ومن يلوذ بهم. أسفر ذلك عن فشل الدولة الترانسفالية في منطقتنا، وما نراه الآن من تحلل لمؤسساتها الفاسدة – والمترهلة – وترنحها في عصر الرقمية. على خلاف الدولة في الغرب وقد مكث منها كل ما هو طيب، وراحت تأتلف في تكتلات عملاقة، كالاتحاد الأوروبي.

الوطنية شجرة لا تزهر أغصانها دون ماء الحرية. باندلاع ثورة 25 يناير المجيدة تخيلنا أن ثمة تغيير سيحدث وأن الاستقرار والثورة سيتعايشان معا ويتبادلان الحماية والود، باعتبارهما وجهان لعملة واحدة. لكن، سرعان ما شهرت قيادات الاسلام

السياسي عبارة الشعراوي المشئومة [الثائر الحق هو من يثور ليهدم الفساد، ثم يهدأ ليبني الأمجاد] في وجه القوى الثورية غير الاسلامية – خاصة من الشباب الثائر – في المجتمع، وراحت تبشر مواطنينا بفردوس الاستقرار، وهناءة الرضا والاسترخاء.

الإسلاميون والعسكر مصلحيون – أو بلفظة مؤدبة: عمليون – ولا يتمتعون ببعد النظر، وتلك آفة حضارتنا الإسلامية. مادلين أولبرايت قالت في مذكراتها: بعد النظر نادر في العالم العربي. ثورية الإسلاميين – وهنا مقتلهم – مؤقتة ومرهونة دوما ببلوغ أهداف محددة. أزمة حقيقية نواجهها نحن وهم، كونهم ورثة العسكر بحكم الأمر الواقع وخلو مجتمعاتنا من البديل. تفكيك هذه المعضلة مطلوب، أعني معضلة تنافر الاستقرار والثورة، فاستمرار الخصومة القائمة سيفضي بدولة الاسلام السياسي الوليدة وبمجتمعاتنا بطبيعة الحال إلى آلام جديدة.

وحده التفكير غير الفقهي هو القادر على التصدى بجرأة وجسارة إلى معضلة كهذه واعفاء الاسلام السياسي من هكذا حرج. فليسمح حكامنا الجدد بجهود نقدية أنسنية، دونما استخدام لفزاعة الاستقرار. هذا الأمر – إن هو حصل – يصب في صالح دولة الاسلام السياسي الوليدة وفي صالح حضارتنا ككل. فالاستقرار وحده – في غيبة الثورة – ينتهي حتما إلى التعفن والرداءة.

(27)

ماذا يُصلح الطعام إذا فسد الملح؟

من ميراث حكم العسكر – والملكيات المستبدة – فساد الملح أو إفساده. الأجهزة الرقابية في عالمنا العربي يتقدم المظلوم إليها بشكواه، فلا تلبث الشكوى أن تتدحرج لتستقر في يدي الظالم! يقف المظلوم حائرا، فإذ بأولاد "الحلال" يهمسون في أذنه بأن يكفى خيره شره، ويحمد لله أن المسألة وقفت عند هذا الحد..

ماذا يصلح الطعام إذا فسد الملح؟ لا شيء، وحده الربيع العربي – بمعناه الرحب والخصب – هو القادر على استبدال ملح صالح بملح قد فسد. الطعام الفاسد ثمة إمكانية لاصلاحه، أما الملح فلا سبيل – البتة – لاصلاح فساده. والسؤال: هل يعي الإسلاميون مثل هذا الأمر؟

تجربة الإسلاميين في مصر والتى انقلبت عليها دولة العسكر في 30 يونيو لا تبشر بخير، فملح دولتهم – كما بدا – وإن لم يكن بنفس درجة فساد ملح دولة العسكر إلا أنه قابل للعطب الشديد، ليس لطبيعة الإسلاميين الشخصية وإنما لطبيعة بنيتهم التنظيمية والتى تتداخل فيها القرابة والمصلحة والمشترك الأيديولوجي على

نحو يصعب معه حفاظ دولة الاسلام السياسي الوليدة على استدامة صلاحية الملح، ولنا في تاريخ حضارتنا الاسلامية المرير – في معظم أوقاته – خير شاهد.

لا أقصد بقولي هذا أني يائس من دولة الإسلام السياسي، رافض لقيامها. على العكس، وجود الاسلاميين في رأيي شديد الأهمية، لأسباب عديدة منها على سبيل المثال لا الحصر:

أولا، تأكد فساد ملح دولة العسكر – والملكيات المستبدة –، وهو ما يعني عجزه المستدام عن إصلاح الطعام.

ثانيا، أهمية خوض مجتمعاتنا للتجربة الإسلامية، فمن شأن أمر كهذا وضع أبناء مجتمعاتنا أمام مشاكلهم الحضارية المراوغة، فإما أن يتغلبوا عليها وإما أن تعجزهم على نحو واضح وصريح.

ثالثا، التجربة الإسلامية بذخمها الأيديولوجي – مهما تواضع – تفضل ميوعة دولة العسكر – والملكيات المستبدة –، حيث لا لون ولا طعم ولا رائحة.

رابعا، الأممية الاسلامية أقرب إلى المزاج الكوني الراهن، ولمجتمعاتنا أن تستفيد منها على نحو خلاق، على خلاف الحال تحت حكم دولة العسكر – والملكيات المستبدة – التى تتسم بالتقوقع وتجفيف منابع الحرية، وهو ما أفضى بمواطنيها ومؤسساتها إلى الترهل والفساد، على نحو ما نرى اليوم...

معنى هذا أن دولة العسكر – والملكيات المستبدة – لم يعد لها مكان في اللعبة الداخلية وعليها أن تتوارى وأن تخضع نواتها الصلبة – وهي الجيش – للحكومات المنتخبة، كما في بقية المجتمعات التى سبقتنا في مضمار الحرية. وليس لدولة العسكر الزائلة أن تستمريء اعاقة تطور مجتمعاتنا، عبر اصرارها – الأناني – على البقاء، كون هذا البقاء يعوق بالضرورة إفراز مجتمعاتنا لمعادل غير إسلامي – يبدأ ضعيفا ثم لا يلبث أن يقوى – يمارس اللعبة الداخلية جنبا إلى جنب مع قوى الإسلام السياسي.

(28)

ما بعد العسكر: مخاوف مشروعة

رحيل العسكر وخروجهم النهائي من اللعبة السياسية الداخلية وحده لا يكفي!

ثمة مخاوف مشروعة من معاودة الإسلاميين– خاصة قيادات الإخوان المسلمين – إجهاض الموجة الثورية المحتملة، من خلال تورطهم في صفقات فلولية خائبة، كما في المرة الأولى. فلا تزال أحاديث رموزهم غير المعتقلين تشي باغراقهم في التفكير المصلحي وقصر النظر الشديد. يرون فيما حدث خيانة وقعت لهم فحسب، ويتعامون بدربة عن أخطائهم الساذجة والكارثية.

لابد إذن من تدابير لحماية ثورتنا المجيدة، بل وحتى حماية الإسلاميين من أنفسهم، صحيح أن الإسلام السياسي تيار قوي ومؤثر على الأرض، غير أن محنته في قياداته التاريخية، كونهم – بقوة الأمر الواقع – خالطوا العسكر وتماهوا مع نهجهم في الحكم كثيرا، على خلاف القوى الثورية الشبابية والتى تنفر بقوة من قواعد اللعبة القديمة، بل وتعمل على كسرها وارساء قواعد جديدة، ويمكنهم ذلك لولا افتقارهم لمنظرين ورأي عام مستنير يساندهم.

من هنا، لابد أن يعقب رحيل العسكر وعودة الشرعية الدستورية قيام كيان من شباب القوى الثورية الرئيسية – بما فيها الإسلاميين على نحو صريح وليس خفية كما يحدث الآن – ينهض بعبء تطهير مؤسسات الدولة والقصاص لدماء الشهداء، وليكن بقاء هذا الكيان مرهونا بانجاز مهمته. وعلى المؤسسات المنتخبة – والتى هي أصلا في حوزة الإسلاميين – أن تدعم مثل هذا الكيان، وتنأى بنفسها عن العودة لتحالفها "غير المشرف" مع فلول دولة العسكر.

وحدهم الشباب هم القادرون على بلوغ أحلامهم وأحلام شعوبهم. فالفساد الأسود يضرب بجذوره في مجتمع جاهلي – أخلاقيا –، وقيادات الإسلام السياسي لا رغبة لها ولا قدرة على اجتثاثه، كونها تعايشت معه لعقود طويلة وتربطها به علاقات معقدة وغير سوية في أحايين كثيرة. فضلا عن اغراقها في التفكير المصلحي وافتقارها الواضح لبعد النظر على نحو بنيوي. ولمن يرى في مثل هذا الاقتراح انتقاص من قيادات الإسلام السياسي المنتخبة وفرض للوصاية عليهم، أقول إن هذه القيادات بأخطائها عرضت ثورتنا المجيدة، وليست مذبحة رابعة العدوية ببعيدة، عندما خرجت القواعد شديدة الحماس والغيرة، تصلح بدمائها أخطاء القيادة.

وبانجاز هذا الكيان المقترح لمهمته الرئيسية، يمكنه – بعد عودة شباب الاسلاميين لأحزابهم – التحول لكيان سياسي [أو أكثر]، يمارس اللعبة الداخلية كمعادل لقوى الاسلام السياسي – يبدأ ضعيفا، ثم لا يلبث أن يقوى –. بدون مثل هذا التوازن الذى هو في مصلحة دولة الإسلام السياسي الوليدة يظل شبح الظلم والفساد جاسما على أنفاسنا لأجل غير مسمى.

(29)

إشكالية تفكيك دولة العسكر

بعيدا عن الجيش باعتباره النواة الصلبة لدولة العسكر وأهمية خضوعه للحكومات المُنتخبة. لدولة العسكر وجود مُتجذر في أرض مصر، ربما لحد لم يكن يتوقعه أكثرنا تشاؤما. فكما أن مؤسسات دولة العسكر مترهلة وفاسدة، كذلك القسم الأعظم من مواطنيها، بما فيهم أنصار الإسلام السياسي – وهذا هو المدهش –. فهؤلاء وإن دأبوا – ولا يزالوا – على ابداء امتعاضهم من ترهل وفساد دولة العسكر، إلا أنهم بمنأى عن جرأة وقوة بناء مجتمع جديد.

مفكرو الإسلام السياسي – كبقية نظرائهم في ثقافتنا – يعملون بالتجزئة ويصنعون طريقهم أثناء السير، أضف إلى ذلك أن للتفاؤل عندهم تفسير غاية في الخطورة وهو "العملية" والهلع من الجدل الفكرى والانصراف عن تشييد الأبنية الفكرية. عبر عن ذلك عصام العريان بقوله: نحن قوم عمليون. المشكلة أنهم لا يأخذون من "العملية" سوى بُعدها التطبيقي، بينما بعدها التنظيري لايشغلهم في كثير أو قليل. وهو ما يُفضي بعمليتهم هذه – وعلى خلاف نظيرتها الغربية – إلى انتهازية عارية وتخبط يسيء لتيار الإسلام السياسي في عصر الرقمية.

النظرية تحمي التطبيق، وتحول دون عشوائيته..

يفسر هذا ما يعانيه الإسلاميون من اخفاقات خطيرة في تعاطيهم مع إشكالية تفكيك دولة العسكر. على خلاف سود جنوب أفريقيا – مثلا – حين شكلوا لتصفية نظام الفصل العنصري/أبارتهيد لجان "الحقيقة والمصالحة – وهي لجان يعترف أمامها المذنبون بجرائمهم ويُبدون ندمهم واعتذارهم ويُمنحون عفوا مجتمعيا". بنجاح هذه اللجان ورئيسها يُضرب المثل.

عشوائية "عملية" الإسلاميين تظل عائقا دون بناء تجربة مماثلة في بلادنا، غير أن من الظلم لومهم وحدهم، فخصائص مجتمعاتنا وحضارتنا الاسلامية وثقافتنا العربية كلها أمور تزيد من حدة الاشكالية. مجتمعاتنا تعيش جاهلية أخلاقية جنبا إلى جنب مع التدين الشديد! مجتمعاتنا يضربها فساد أسود أكسبته السنوات تعقيدا وصلابة. مجتمعاتنا تجفف منابع الحرية والتطرف ومن ثم تندر فيها العبقريات وأصحاب التفكير الاستراتيجي. مجتمعاتنا انحطت فيها الفنون ومن ثم انحطت فيها الذائقة الفنية وهي مهمة جدا في بناء الضمير والذائقة الأخلاقية.

أضف إلى ذلك أن ما بداخلنا – نحن العرب – لا يريد الحقيقة، وأننا لا نحترم الضعف والفشل ولا نؤمن سوى بالقوة والنجاح – بغض النظر عن رداءته –. فالعربي وكما يقول الغربيون يصير معتدلا فقط عندما يفقد سلاحه ويصبح ضعيفا، نلمس ذلك حتى في أنفسنا.

من هنا، تثور تساؤلات عديدة من أبرزها: ما العمل لتجنب خيار التفكيك الخشن لدولة العسكر وعدم تحول الحرب الأهلية "الناعمة" الدائرة الآن إلى حرب أهلية خشنة؟ ما العمل لضمان تجنب انتقال أمراض دولة العسكر المترهلة والفاسدة

إلى دولة الإسلام السياسي الوليدة؟ ما العمل لضمان استدامة تحصين دولة الإسلام السياسي الوليدة من الظلم والفساد؟ ما العمل للاستفادة من القوى الثورية غير الاسلامية – خاصة الشباب – في بناء ما بعد العسكر وليس في تفكيك دولة العسكر فحسب؟ ما العمل لزراعة رئة جديدة في صدر حضارتنا المختنق؟..

(30)

كفي عبثا واتجارا بآلام الفلسطينيين

استمرار الآلام الفلسطينية لم يعد مقبولا ولا يصب في صالح الفلسطينيين، وحدهم هم من يدفعون الثمن(!!)، فالشعب الإسرائيلي يعيش كما نتابع في الصحف والاعلام حياة مرفهة ومستقرة لحد كبير، وحدهم أهل فلسطين هم من يتجرعون الكأس، بعيدا عن النخب الفلسطينية الحاكمة التى تختلف بقوة عن نظيرتها الإسرائيلية والغربية عموما، كونها غير أمينة مع مواطنيها على نحو ما نرى في عصر الرقمية، بل وتتاجر بآلامهم عبر شحنهم المستمر ضد اسرائيل وارهابهم من مجرد ذكر إسمها أو إبداء مجرد الرغبة في الانفتاح عليها، في حين أنهم واستنادا لكونهم نخبا حاكمة فاسدة وتجار آلام محترفين يتاجرون بغضب الشعب الفلسطيني لمصالحهم الخاصة.

وربما يفسر لنا هذا سر اختلاف التعاطي الغربي – مثلا – مع مانديلا الجنوب أفريقي وعرفات الفلسطيني، الأخير أغتيل بدم بارد بعد انتهاء صلاحيته على رقعة الشطرنج، شأنه شأن القذافي وصدام حسين وغيرهم. لا حل لآلام الشعب الفلسطيني إلا بانفتاحه على ذوي الضمائر الحية في المجتمع الاسرائيلي، بل ودراسة كل صغيرة وكبيرة في هذا المجتمع المجاور لنا منذ عقود ولا تمل نخبنا الفاسدة إرهابنا ببعبع التطبيع ومهادنة الكيان الصهيوني وموالاة اليهود..الخ ليخلوا لها المجال في المزايدة والاتجار بآلامنا. ما الفرق بين يهودي يؤذيني وعربي يؤذيني. المظاهرات الجارية في بلادنا ليل نهار تُشبه بعض مواطنينا من ذوي الممارسات غير الانسانية بأنهم أسوأ من اليهود. ماذا ننتظر بعد ذلك، تفكيرا جديدا لابد أن ينشأ لإنهاء ديلما الفلسطينيين.

لينفتح الإنسان الفلسطيني بل والعربي عموما على الإنسان الإسرائيلي لاذابة ذلك الجليد القاسي، ولافهام الإنسان الإسرائيلي أننا شعوب منكوبة بنخبها الحاكمة وأننا

أبرياء من صفقات ملوثة تتم في الخفاء، وأن الإنسان الاسرائيلي لابد أن يفعل الشيء نفسه. ولنا في أمريكا قدوة حسنة، فأمريكا تكره الإسلام السياسي كراهية التحريم ولاتثق به ولا برموزه ورغم ذلك تتواصل معهم ليل نهار، بل هي تستدعيهم خفية إلى رقعة الشطرنج على أمل لتوجيه ضربة قاضية لمشروعهم الاسلامي، لم تقاطعهم! الأمريكيون يزورون مجتمعاتنا ويخترقون كل شيء، فلنفكر بطريقتهم، عسى وعل..

ولنا أيضا في جيراننا الاسرائيليين قدوة حسنة، فكلنا يذكر ذلك الشاب الاسرائيلي إيلان تشايم جرابيل الذى خطب في الجامع الأزهر خطبة ملآى بالأحاديث النبوية وخرج بمظاهرة حاشدة..لم يتهمه مواطنيه بالتطبيع ولا الخيانة بل يفخرون بهكذا كوادر قادرة على اختراق وتحريك الشارع العربي، مثل هذا الشاب خط هجوم متقدم لبلاده، لما لا يكون لنا مثل هذه الخطوط المعرفية الهجومية المتقدمة..مجرد سؤال؟!

(31)

العاطفة ذلك البريء الملوم

عادة ما نسمع وصفا لمجتمعاتنا بأنها عاطفية، تأخذ "العاطفة" أبنائها إلى حيث لا ينبغي لهم أن يكونوا. قوى الفساد والظلم في بلادنا تنجح في ترسيخ صورة ذهنية لشعوبنا تحمل هكذا بصمة. ويأتي الغربيون ليزيدوا الطين بلة بأن يضفوا الصبغة العلمية على هذا التوصيف!

"العاطفة" لفظة فضفاضة، تنضوي تحتها معان شتى تبدأ بقيم ومثل عليا وتنتهي بمعان الانحياز والمصلحية واللاموضوعية واللانزاهة. المضللون – إذا – كسوا القليل من الحقائق بركام الأكاذيب، شيء أقرب لما يسميه الأمريكيون في أدبياتهم الرصينة "حماية الحقائق بالأكاذيب"، مع الفارق طبعا في الغاية والوسيلة، ففي حالة مجتمعاتنا الُمضللة كلاهما رديء. الانحياز والمصلحية والموضوعية واللاموضوعية واللانزاهة..كلها معان مكانها هامش العاطفة وليس جوهرها الأصيل.

من هنا، ليس صحيحا أن أصحاب التفكير الفلسفي – خاصة الأنسني – خلو من العاطفة في أبنيتهم النظرية ونقدهم القاس الخشن. هم في جوهر العاطفة الأصيل الصعب بمعزل وترفع عن الهامش الرديء السهل. يدل على ذلك لامصلحية ثوريتهم.

المفكر الأنسني – شأن غيره من أصحاب التفكير الفلسفي – عندما يتفلسف ويمارس لعبة النقد يفعل ذلك بكليته الانسانية، كونه لا هو ولا غيره من بشر – على الأقل حتى الآن – لهم القدرة على تحديد موطن العاطفة وحدودها في كليتهم الإنسانية.

لا صحة إذن للمغالطات القائلة بخلو التفكير الفلسفي وأصحابه من العاطفة، بل إن عاطفتهم أرقى كثيرا من غيرهم.. يتجسد هذا بوضوح في علو الذائقتين الجمالية والأخلاقية عند أصحاب التفكير الفلسفي، وهما يرتبطان بقوة بالعاطفة، أعني بالطبع جوهرها الأصيل ممثلا في القيم والمثل العليا وليس في هامشها الرديء.

العاطفة بريء ملوم في مجتمعاتنا، يحتاج لمن ينصره ويعمل على تبرئته.

(32)

الإله الرقمي وشريعة العولمة!

القرن ال21..هل هو قرن الأديان؟ بعبارة أدق، هل ثمة يقظة للأديان يعيشها العالم في هذا القرن؟..أم أن ما نعيشه – خاصة في منطقتنا – من صعود نسبي للأديان والطائفية الدينية هو صحوة الموت على نحو ما يرى البعض؟ وهل يمكن للأديان أن تزوي وأن تموت كالبشر؟

"الرقمية" هي ما قد يساعدنا على تشريح الاجابة الغربية على هكذا تساؤل، بقدر ما يزعم العولميون من نجاح في فك شفرة الدين. ثمة إمكانية برأيهم لظهور أديان إفتراضية(!!)، تكون خليطا هجينا من نحل وشرائع سماوية وغير سماوية، استنادا إلى سطوة الرقمية وقدرتها على النفاذ إلى قلوب وعقول البشر على نحو لم يسبق له نظير في تاريخ البشر. نسمع اليوم عن الحج الافتراضي والمعابد الافتراضية والزواج الافتراضي..الخ. أمور كهذه لطالما أحيطت بسياج رهيب من القداسة والتوقير تأتي الرقمية لتتجرأ عليها وتحاكيها ببساطة، لم نعرفها قبلا.

الرقمية هي نتاج العبقرية الغربية، بكل ثوريتها وتمردها ونزوعها لاقتحام المجهول، ومن ثم فالرقمية وإن كانت وسيلة إلا أنها جزء أصيل من الرسالة! العولمة هي المضمون الذى تبثه الرقمية على نحو شديد المنهجية والدربة غير مسبوق في قلوب وعقول البشر، في كل مكان. الرقمية في علاقتها بالعولمة نتيجة وسبب،

مخلوق وخالق، رسالة ورسول، شريعة وإله، تريدها قوى السوق الكونية ديانة رقمية توحد البشر وتحقق ما لم تحققه الأديان المتعارف عليها اليوم.

نحن – إذن–، إلى جانب الأديان الافتراضية التى يُهيأ الفضاء الرقمي بقوة لافرازها، إزاء ديانة جديدة، الاله فيها – كما تريده قوى السوق المستترة – هو الرقمية، والشريعة هي العولمة، ديانة يُراد لها – كما أسلفت توا – توحيد البشر، ذلك الحلم الذى لطالما راود الكثيرون عبر التاريخ، ولو أن أحدا منهم لم ينجح – ربما لتعارض ذلك مع سنة كونية هى التنوع والاختلاف –. الاله الرقمي..هل ينجح هذه المرة في توحيد البشر في ظل شريعة عولمية، يؤدي البشر بموجبها فريضة التسوق بلا كلل، تقربا لهذا الاله الرقمي، صاحب ما يسمونه "المشيئة الذكية".

أفكار كالمعروضة توا بعيدة تماما عن تفكير مجتمعاتنا ومنظرينا عدا قلة لا تتجاوز أصابع اليد الواحدة، لا تجد دراساتها وأبحاثها اهتماما يُذكر. لكن، مثل هذه الأفكار في بؤرة اهتمام الغربيين، خاصة من ناحية إمكانية توظيفها في تفكيك الحضارات غير الغربية – خاصة الاسلامية –، باعتبارنا محل اهتمام غربي شديد منذ هجمات 9/11. يظهر ذلك من كم الأبحاث والمراكز البحثية المتخصصة في مجتمعاتنا. إنه استشراق "تفكيكي" لم نعرفه من قبل!

استشراق تفكيكي ليس كنظيره "التنويري" الذى لطالما شكونا منه وشككنا في نوايا أصحابه. هم ملائكة مقارنة بالمستشرقين "الجدد"، والذين هم في خدمة قوى السوق الكونية..

(33)

كواليس صناعة القرار في أمريكا

الولايات المتحدة ليست دولة بالمعنى الترانسفالي البسيط، على الأقل في القرن ال21، هي عاصمة قوى السوق الكونية. صناعة القرار الأمريكي عملية شديدة التعقيد والثراء، تغطي الاستراتيجيات الحاكمة للعالم وقواعد اللعبة على كافة المستويات ككل الامبراطوريات المترامية، ناهيك عن امبراطورية في عصر الرقمية.

تنفيذ سياسة خارجية لها هذا القدر من التعقيد والثراء ليس ميسورا بكليته للحكومة الأمريكية الظاهرة للعيان والتى يقودها رسميا الرئيس الأمريكي والفريق الرئاسي المعاون له، كونها مقيدة بقوانين واعراف كونية. من هنا توجد حكومة أخرى في الولايات المتحدة الأمريكية "خفية" – كما يسميها ديفيد وايز وتوماس روس في كتاب قيم لهما يحمل الإسم نفسه –. الحكومة الخفية وهي مخابراتية راقية دورها لا يقل أهمية وثقلا عن نظيرتها "العلنية"، في تنفيذ الاستراتيجيات والسياسات الأمريكية، ومساعدة نظيرتها العلنية في خدمة أمريكا، خاصة الأعمال "ضبابية" المشروعية.

في عملية التحول الديمقراطي في جمهورية جنوب إفريقيا، على خلفية انهيار الاتحاد السوفيتي وكتلته الشرقية وانتهاء الحرب الباردة، لم تغب الولايات المتحدة بحكومتيها العلنية والخفية عن المشهد. نجد ذلك مذكورا بشفافية في مذكرات ووثائق عملية التحول نفسها، بما فيها مخطوطات الراحل نيلسون مانديلا. لم يتهم أحدا مانديلا ونظيره الأبيض ديكليرك بالخيانة، لم يشعر الزعيمان بالحاجة إلى التخفى!

أما في بلادنا – بلاد العرب – معقل الفهلوة والانحطاط الأخلاقي والتمرد على السنن الكونية، نجد خلطا مخيفا للأوراق يجد تجاوبا غريبا غير نزيه. كل سياسي عربي – أو نظام – يرغب في المُزايدة على خصومه وتدعيم موقفه، ويرغب الغربيون بدورهم في تمكينه ورفع شعبيته وتشجيعه على تضليل مواطنيه وعلى التعاون في الخفاء، ليس عليه سوى التلاسن مع أمريكا وسياسييها ويصرخ بحق بلاده في الاستقلال والانعتاق من السيطرة الغربية وأنه لا يخشى في الله لومة لائم.

وسرعان ما يأتيه المدد الغربي في شكل هجوم حاد عليه وعلى تعصبه وكراهيته للغرب واصراره على إستقلال أوطانه. تنجح اللعبة دائما، وينخدع البسطاء! نموذج ناصر في تأسيسه لدولة العسكر خير تجسيد لهذه اللعبة، بشهادة صُناعها.

سؤالي: أمر كهذا مقبول، لكن غير المقبول أن تختفي تماما التحليلات الجادة كما في بقية الدول المحترمة، غير المقبول أيضا أن يُتهم الصُرحاء بتشويه الأبطال والزعماء التاريخيين. لأنه ليس في الأمر تشويها، إلا لو كان ما يجري في الخفاء يُخشى الحديث عنه في العلن لعدم جوازه. شفافية علاقة زعمائنا بالغرب فيه حماية لهم من ابتزاز الغربيين، وكذا حماية لهم من التورط في أمور قد تضر بمواطنيهم.

وإذا كان مثل هذا الكلام ينطبق على القرن ال20، فهو يصح وبدرجة أقوى في عصر الرقمية. لا نريد هيمنة المُضللين وتفسيراتهم الغائمة، يُفرز ذلك، على الأقل في المستقبل البعيد، دولة فاشلة ومجتمعا فاسدا، وليس ما نعيشه اليوم ببعيد.

(34)

الكتمان أنثى .. والبوح ذكر

الكتمان أنثى والبوح ذكر، كلمات قرأتها لزينب الخفاجي، تأملتها كثيرا كونها تأتي من عوالم أنثى. قادتنى لتساؤل لم أطرحه قبلا: مجتمعاتنا أنثوية – إذن –؟! كيف هذا ونحن الشرقيون نعتز بالرجولة وُننزلها منزلة عالية، فكل راق مرتبط في وجدان الشرقي بالرجولة. حتى حرائر مصر يهتفن في الشوارع "حطوا بناتنا في التخشيبة، احلق شنبك والبس جيبة". ناسين أنهن بدون شوارب ويلبسن جيبة، مع ذلك لم يسكتن عن ضيم. أسأن للجيبة وانعدام الشارب!

تفسير ذلك عندي ربما قناعة مترسخة في اللاوعي الشرقي والعربي بفوقية الرجل ودونية المرأة، قناعة يدحضها الواقع بعفوية، حرائر مصر هن من يحيين الثورة! كيف لقناعات شرقية وعربية كهذه: فوقية الرجل ودونية المرأة وذكورية الأخلاق والقوة بل وذكورية المجتمع، كيف لكل هذا أن يسكن وجدانا ارثه الكتمان والتخفى وعيش الظلام. يرعبه البوح، يراه هتكا لستر.

تضارب مضحك ومرعب قائم. مجتمعات تعيش الكتمان ويرعبها البوح توصف بأنها معقل الصلابة والذكورية وفوقية الرجل ودونية المرأة. في حين أن الغرب وهو يعيش البوح يوصف بأنه معقل الأنثوية والميوعة.

لما نسمى الأمور بغير أسمائها، وإلى متى يستمر هذا؟

هذا أيضا يفسر كراهية خفية للأنثوية حتى عند نسائنا أنفسهن، دعك من أغاني سعاد حسنى ونانسي عجرم وصباح عن البنوته، كل هذا ستر لكراهية أصيلة، ليس للمرأة لحد ذاتها كمخلوق، وانما للأنثوية كون مجتمعاتنا بمرارة عاجزة عن تجاوز كتمانها إلى البوح الذكوري.

(35)

هيكل وقطب: وجهان لزمن واحد

منذ عقود وبالتحديد ما بعد الحرب العالمية الثانية ونشوء نظام عالمي جديد، ثنائي القطبية –السوفيت والأمريكيون –. انتبهت أنظار اثنين من مفكرينا الواعدين، هما: محمد حسنين هيكل وسيد قطب، للعملاق الأمريكي الناهض القوي اقتصاديا والحالم بسيادة العالم.

محمد حسنين هيكل صحفي مصري، شاب طموح ومصلحي التفكير. يعمل – وقتها – بصحيفة مصرية ناطقة بالانجليزية ويسافر كمراسل حربي إلى فلسطين. بارع في نسج الصداقات والعلاقات مع الشخصيات المؤثرة والنافذة على كافة الأصعدة. قاريء شديد العبقرية لاتجاهات السياسة العالمية في لحظاتها المفصلية، وتداعياتها على صعيدي الداخل والاقليم.

أما سيد قطب فهو شاب ثائر متمرد، وجد لتمرده متنفسا بداية في النقد الأدبي فكان وأمثاله – كأنور المعداوي – نجوم في سماء النقد في عصر مشتعل فكريا. غير أن تمرد قطب لم يلبث أن قاده إلى الإسلام السياسي – ولا أدري الملابسات –، فصار أحد أبرز منظريه، ساهم ربما كما لم يساهم غيره – عدا حسن البنا – في تزخيم البنية النظرية للإسلام السياسي.

هيكل وقطب – إذن – كلاهما تعرف على أمريكا. الأول من خلال عمله كصحفى محترف وصاحب يقظه غير عادية فكريا وسياسيا. أما الثاني، أعني قطب، فقد زار أمريكا في رحلة شاهدت عنها فيلما وثائقيا شديد الأهمية، وافاني به صديق مدرس بالجامعة الأمريكية.

هيكل رأى في أمريكا سيدا ثريا متطلعا لحكم العالم، في حين رأى فيها قطب جبروتا وانحلالا. تماهى هيكل مع الحلم الأمريكي – حتى في تدخين السيجار ولعب الجولف، رغم تواضع النشأة –، هيكل تواصل مع ساسه ومفكرين واستخباراتيين أمريكيين على نحو حميم وغائم. بينما تمرد قطب وناصب شريعة أمريكا العداء، وحلم بشريعته منافسا لـ"شريعة أمريكا".

هيكل امتطى الصقر الأمريكي المحلق، وبلغ على ظهره سماء السلطة والثروة والنفوذ. بينما وقف قطب داعيا لاصطياده في سذاجة ونبل ثوريين، كونه لم يقدر شراسة الصقر الأمريكي والذى أغرى فعلا هيكل ورفاقه، فنصبوا المشانق وروعوا الرافضين لغير شريعتهم.

وراحت أيام وجاءت أيام. وراحت أشهر وجاءت أشهر. وراحت سنوات وجاءت سنوات. وراحت عقود وجاءت عقود. أورثنا هيكل ورفاقه نظاما عسكريا انتهى به الأمر إلى الفساد والظلم. فشلت الدولة وفسد المجتمع. قطب أيضا لم يكن مفلسا،

ترك تمردا اسلاميا ناصب العسكر والملكيات المستبدة عداءا شديدا وناصب أمريكا العداء الأشد، كون العسكر استقووا بها عليه.

من هنا، قاد اليأس "السبتمبريين" إلى هجمات دموية في عقر وكر الصقر الأمريكي.. انتبه الصقر الأمريكي للرسالة الدموية وراجع استراتيجياته وقرر التخلى عن إرث هيكل وعدم ممانعة استدعاء حلم قطب إلى رقعة الشطرنج، على أمل أن يضع الإسلاميون بأيديهم مشهد الختام في مسيرة حضارة عريقة تمردت على سنن كونية تقضي باحترام الحريات وحماية الفكر الذى نبغض. ولسوف يكشف المستقبل عما اذا كان الصقر الأمريكي قد أحسن القراءة.

(36)

هيكل ينقض غزله..بأمر من؟

محمد حسنين هيكل – وهو أحد كبار مؤسسي ومنظري دولة العسكر – يظل تصدره لمشهد انقلاب 30 يونيو مثيرا للكثير من التساؤلات، خاصة ومفكرنا الكبير معروف بعبقرية غير مألوفة عندنا في قراءة التحولات العالمية في لحظاتها المفصلية، وتداعياتها على الصعيدين الاقليمي والمحلي. فليس واردا أن يغيب عن هيكل تخلي الولايات المتحدة، ومن ورائها قوى السوق الكونية، عن دولة العسكر والملكيات المستبدة على خلفية هجمات 9/11.

الأرجح – برأيي – هو أن يكون هيكل قد سبق كالعادة تلاميذه من مفكرى دولة العسكر وهو قدوتهم إلى المستقبل. أعنى أن تصدر مفكرنا للمشهد الانقلابي يأتي منسجما مع توجهات عولمية. بعبارة أخرى، هيكل ليس بعيدا عن استدراج قادة عسكريين يلفهم الغرور وقصر النظر إلى مصير يفقد معه مستقبلا أي عسكرى مصري أو عربي جرأة التمرد على سلطة منتخبة.

تصدر هيكل للمشهد الانقلابي ليس مصادفة، وانما تتويجا لجهد عولمي واقليمي وداخلى تنتهى معه فكرة دولة العسكر وقد استنفذت من وجهة نظر الجميع أسباب ومبررات وجودها.

هذا الرأي يجد تعزيزا في تصريحات يطلقها هيكل من حين لآخر، برصدها وتحليلها يستطيع الباحث النزيه والمنظم تفهم مسار الانقلاب وتدحرجه المحبوك من ذروة القوة والشعبية إلى هاوية الوهن والرفض الشعبي.

هيكل بعد نظر نادر في مجتمعات مغرورة قصيرة النظر.

هيكل أحسن قراءة التحولات العالمية المفصلية بعد انتهاء الحرب العالمية الثانية، حين ساهم مع ناصر في بناء دولة العسكر، ليس في مصر فقط بل وفي المنطقة ككل. وهاهو يفعلها اليوم ثانية، ويساهم في بناء دولة الاسلام السياسي. وإن ظهر في المشهد مناوئا لها.

هيكل بطريقته يتماهى – بروعة – مع الطريقة الأمريكية في معاملة مجتمعاتنا.

(37)

كن أخلاقيا وإلا سحقتك

فى آتون الثورة الفرنسية كان الفرنسي يقابل أخيه، فيبادره بما معناه: [كن أخلاقيا وإلا سحقتك]. تمكين للفضيلة وانفاذ لسلطتها تنتصر له صرخة كهذه. المقصود طبعا ليس الأخلاق الشخصية، فلكل حريته ما لم يتجاوزها إلى حريات الغير. المقصود هنا الأخلاق العامة حين تلتقى وتتشابك وتتصادم المصالح، لم يرض الفرنسي بغير القيم والمثل العليا معيارا للتعامل..

تطرف أخلاقي خلاق كهذا مفقود في ثورات الربيع العربي، ولا تزال نفوس مواطنينا يتعايش فيها بغرابة التدين الشديد مع "التعريص – التواطؤ بدم بارد على ظلم وفساد –" في سلام غريب. التدين وحده لا يكفى ولو بلغ أشده، لا يكفى لصون شرف المجتمع وعلو همته.

نمط وحيد للتطرف عرفته مجتمعاتنا بل وحضارتنا ككل هو التطرف الدينى، وقد تأوج في السبتمبريين وهجماتهم الدموية في 11سبتمبر2001 ضد الولايات المتحدة الأمريكية عاصمة قوى السوق الكونية، والحالمة بتوحيد العالم في ظل إلهها الرقمي وشريعتها العولمية.

التطرف الديني نجح – وهو نجاح مُلطخ بالدماء –، في اجبار العملاق الأمريكي على تغيير استراتيجياته تجاه منطقتنا بل وحضارتنا الاسلامية. تخلت أمريكا وحلفاؤها عن دولة العسكر والملكيات المستبدة وهاهم يساندوا بحكوماتهم الخفية صعود الاسلام السياسي لرقعة الشطرنج، على أمل أن يضع الاسلام السياسي بنفسه نهاية لنضاله العنيد، ولمسيرة حضارة عريقة لطالما تمردت على سنن كونية، تقضى باحترام الحريات وحماية الفكر الذى نُبغض.

التطرف عادة ما يستفز المجتمع ويحرك ركوده، رهاب التطرف ضرب مجتمعاتنا بقوة، لكننا اليوم وفي محنة جاهليتنا الأخلاقية لا بديل لنا عن السماح إلى جانب الاسلام السياسي بتطرف أخلاقي خلاق، يُساهم في تزخيم الوعظ الاسلامي، بتربية أخلاقية وبناء للضمائر.

القبول بهكذا رأي يفتح الطريق أمام أنماط شتى من التطرف الخلاق لم تعرفها مجتمعاتنا قبلا يقتصر وجودها تقريبا على المجتمعات الراقية. الأصولية البيئية مثلا تدعو لحماية الانسان من ادمان مستحدثات التكنولوجيا وصون انسانيته والطبيعة، بدونهما لا حياة. لو ساد مثلا تحكم التكنولوجيا الحيوية والآلات الروحية..الخ. لن يبق من انسانيتنا شيئا، ولا قيمة وقتئذ لحياة..

تطعيم حضارتنا بهكذا أنماط من التطرف الخلاق يعنى اعلان فشل التنوير التقليدي في مجتمعاتنا. محاولات تطعيم أصحاب التفكير الفقهى بشذرات من التفكير الفلسفي أربكت وجدانهم ولم تُعقب. نجد هذا في علم الكلام، صيره التنوير كصحراء ملآى بالعظام اليابسة.

التنوير القادم أراه طريقة تفكير فلسفي/لاغائي/نقي يُسمح لها بموطيء قدم في حضارتنا الاسلامية، يسير أصحابها جنبا إلى جنب، في خط مواز لأصحاب التفكير الفقهى الغائي. يُكملان بعضهما البعض ويحرصان على صدام خلاق، يتدارك أخطاء التنوير التقليدي وما جرى من تورط رواده في مسائل فقهية شائكة، أكسبتهم عداءا قويا كما في "تهافت الفلاسفة".

(38)

لنجرب الظمأ وقد أذلنا الرواء ..

نحن باحثون جيدون عن الرواء، وليس الظمأ!..

الإنسان عندنا لديه جرأة استيراد الأفكار كما السلع، تحت الحاح الضرورة العملية، ولا شيء في ذلك، لولا أنه عادة ما يتم وسط كبرياء مزيف، وانكار هائل ومُربك لوطأة الاحتياج، ومزاعم طارئية الاضطرار والتى عادة ما يُغادرها الحرج وتتحول لأمر واقع وقضاء لا راد له.

خذ مثلا فكرة "اللاعنف" وهي إحدى ثمار التفكير الفلسفي، لها روادها ومُنظريها من خارج حضارتنا، تجد توطينها اليوم في ثقافتنا العربية، بل وحضارتنا الاسلامية، إنما يجري وسط انكار هائل لضعفنا الفكرى وادعاء وقح لعبقرية تطبيق تجب – عندنا – عبقرية التنظير، فضلا عن تبرير الأخذ باللاعنف بأنه أقوى من الرصاص، وأنه الأجدى في مواجهة عسكر مُسلحين، نصرهم في استدراج خصمهم إلى العنف، حيث اليد العليا لهم، ويد غيرهم السفلى.

أمر مُربك حقا، والاصرار عليه أكثر ارباكا. لم أقرأ لأحدهم يناقش إشكالية كهذه، الكل يوغل بقوة في التطبيق ونقد التطبيق والتباهى بعبقرية مُتخيلة ما أنزل الله بها من سلطان. آفة حضارتنا هى نقد تطبيق الأفكار، وليس نقد البنى النظرية

للأفكار ذاتها، وهو ما ينتهى عادة إلى وهن وعجز مستدام عن التطوير. لأنه لتطوير جاد، لابد من نقد وتخريب خلاق للأفكار.

من هنا، أتوقع أن تظل مجتمعاتنا في هكذا دائرة جهنمية، أن تظل كببغاء تردد مقولات غاندى وجين شارب ومارتن لوثر كينج وغيرهم، من دون أن يكون لها اسهاما نظريا يُعتد به.

أنا لا أعتب على شبابنا الثائر في هذا، كون التطوير ليس دورهم على الأرجح، هو دور مفكرينا وأساتذة الجامعات وباحثينا. ليس مقبولا منهم رصد وتحليل لا يتجاوز القشور بكثير.

وقوفنا في استيراد السلع والأفكار عند حد الاستفادة العملية بها والاكتفاء بنقد التطبيق وليس نقد البنية النظرية لما نستورده. فلا فرق عندنا بين نقد لموبايل نستورده ونعترض على أمور به ونقبل بأخرى. وبين نقد لفكرة كاللاعنف، واعتراضنا على أمور بعينها وقبول بأخرى.

ما هكذا تُورد الابل أيها المستوردون ..

(39)

لست عنصرياً !

لابد لنا من نقطة ما نُطل منها على مشهد الحياة، ولا حيلة لنا على ما يبدو في اختيار هكذا نقطة والتى غالبا ما تكون بيئة حضارية يُولد فيها الواحد منا ويتربى ويتشبع وجدانه بمُعطياتها، ناهيك عن حضارتنا الاسلامية والتى هي أصلا بيئة أبوية لا ترضى من أبنائها بغير التوقير الشديد، إلى جانب أنها مُشبعة – ربما عمليا، وليس نظريا – بالقداسة، بما يجعل مراودة ثوارها للنقد والتطوير أقرب لمراودة المستحيل. عدم افادتنا من عصر التنوير يؤكد هذا.

من هنا، فالحديث عن انتماء لحضارتنا الاسلامية لا يعني بحالٍ عنصرية صاحبه أو رفضه لغير أبناء حضارته، هو مجرد تحديد لنقطة يُطل المرء منها على مشهد الحياة، لا يعني فوقية حضارية أو تمييزا حضاريا بقدر ما يعني تحديدا لنقطة الانطلاق في إعادة خلق الحياة. حضارة ننتمي إليها هي صخرة تستند إليها أقدامنا حين نثب إلى آفاق الرحابة الانسانية، ضمانة ألا نُقتلع يوما من جذورنا. الرحابة الانسانية لا تعدو كونها اغراقا في خصوصية ثقافية راقية.

ما يصنع الاختلاف هو ذلك المنظار الذى يرى أبناء حضارة بعينها الحياة من خلاله. وكلما تنوعت مثل هذه المناظير ازدادت الحضارة خصوبة وتنوعا وصداما خلاقا بين مكوناتها. ثمة بون يفصل بين منظار فقهي وآخر فلسفي – على

سبيل المثال –. صاحب المنظار الأول يفهم النقد والتطوير بأنهما اجادة لاستعادة الماضى وتكرار واستنساخ تجاربه خاصة الناجحة بأكبر قدر من الصرامة الممكنة، مع تغذية كلما اقتضت الضرورة العملية بثمار الحاضر دون أدنى تحرى لطرائق غرس، قد تكون مسئولة عن ثمار "طيبة" تجود بها تربة الغير الحضاري.

أما صاحب المنظار الثاني فيفهم النقد والتطوير بأنهما تخريب خلاق لصرح حضاري بأكبر قدر من النزاهة والتنظيم، مع تحر دؤوب لطرائق الغرس، كون ذلك أشرف وأسمى – برأيه – من ولع استهلاكي بقطف الثمار. هو لا يعمل على تزخيم حضارته بثمار الغير الحضاري تحت الحاح الضرورة العملية كما في حضارتنا، بل يعمل على تزخيمها باختبار طرائق غرس الغير الحضاري وتربة تنبت فيها هكذا ثمار طيبة، رغبة منه في تحرير أبناء حضارته من ذل وعقم الرواء لخصوبة الظمأ، كما في أنسنية هي أحد ثمار التفكير الفلسفي.

أصحاب المنظار الفلسفي لا حظوظ لهم على ما يبدو في حضارات مُشبعة بالقداسة – على الأقل عمليا – كما أسلفت. حضارات الشرق – ومنها حضارتنا الاسلامية – من هذا النوع، هي في تنشئتها لأبنائها تستميت في اجتثاث كل ما تصل إليه من بذور التمرد في النفوس، وحتى من يفلتون بتمردهم تجدهم بغرابة أسرى شرك قطف غرس يد أصحاب المنظار الفلسفي من غير أبناء حضارتهم. فتجد من يباهي بآرسطويته أو ماركسيته أو لاعنفيته..الخ

مع اندلاع الثورات الرقمية والمعرفية، أصبح هناك شريك قوي للحضارات الشرقية – ومنها حضارتنا – في تنشئة أبنائها. شريك هو الرقمية! ومن ثم تواجه نشء المستقبل أمور:

[1] بيئة حضارية إسلامية تحرص على اجتثاث كل بذور التمرد من نفوسهم، حفاظا على قداسة حضارية، ضمنية وغير مُعلنة. [2] بيئة حضارية إسلامية تحرص على تنشئة جيل متوائم مع بيئته بصورة أقرب لليقين، ليس لديه جرأة التمرد على حضارته ونقدها وتطويرها. جيل يُسمم وجدانه بغرس النفور إزاء كل ما هو مختلف وجديد. [3] بيئة رقمية زاخرة بثمار الغير الحضاري "ناعمة كانت أم صلبة"، بارعة في "هندسة ثقافية" لحضارات العالم المختلفة.

حضارتنا في انتظار انهيار عظيم

(40)

دولة الإسلام السياسي:

عندما تكون المصالح الحياتية مُشبعة بالقداسة

في صفوف الاسلام السياسي الكثير من الشرفاء – خاصة على مستوى القواعد –، لكنهم كثيرا ما يصمتون عن حقائق! .. لابد لتواطئهم من أسباب قوية، فليس سهلا أن يضرب الفساد ضمائر قوم كهؤلاء، في أوقات المحن – كما رأيناهم في الماضى، ونراهم اليوم – يُعرضون أنفسهم وذويهم لصنوف التشريد والتعذيب والسجن، وربما الموت عن طيب خاطر!!

إشكالية كهذه شديدة التعقيد والتراكم، النفاذ إليها وتشريحها لابد أن يمر عبر طريقة تفكيرنا الفقهية/الغائية والتى قد لا تبدو مثالبها واضحة للعيان إلا حين يُصبح الاختيار حتميا بين المصلحة الحياتية والحقيقة. ساعتها فقط يُرى التطرف المصلحي لطريقة تفكيرنا الفقهية عاريا من كل شيء. فكيف يقبل شرفاء الاسلاميين عُري أخلاقي كهذا وهم من هم في علوهم!

التفسير برأيي ربما نجده في فكرة "المصالح الحياتية المُشبعة بالقداسة". يلوذ الاسلاميون بهكذا "غطاء" لستر عورة انتصارهم لمصالح حياتية على حساب

الحقائق، خاصة حين تُلجئهم الضرورة العملية لوسائل "غير أخلاقية"، ويجدون أنفسهم يقاتلون في جانب هكذا "لاأخلاق".

دولة الاسلام السياسي/الخلافة، رغم نبل الفكرة، تتقاطع بغير مراوغة مع فكرة المصلحة الحياتية المُشبعة بالقداسة، من حيث هي مُلك لابد منه للتمكين للاسلام – والذى هو الحل –.

دائرة جهنمية تكاد تبتلع الاسلاميين ومجتمعاتهم وحضارتهم! ففي سعيهم العنيد والدؤوب لاقامة دولة اسلام سياسي/خلافة – لابد منها تاريخيا للتمكين لشريعة/طريقة حياة إسلامية – عادة ما يضطر الاسلاميون للانتصار لـ"مصالح حياتية" وربما أيضا لوسائل "غير أخلاقية".

والسؤال: هل القيام "المرتقب" لدولة الاسلام السياسي في المنطقة من شأنه كسر هكذا دائرة جهنمية وتفكيك فكرة المصالح المُشبعة بالقداسة؟ أم أنه ربما يزيد الدائرة جهنمية وانغلاقا ويزيدنا احتراقا بويلاتها، من جهة أن استمرار دولة الاسلام السياسي والتمكين لها وتقويتها – كمصلحة حياتية مُشبعة بالقداسة – لا يقل عند الاسلاميين أهمية عن اقامة الدولة نفسها؟..

وهل خسارة الشريعة الاسلامية – بوصفها أسلوب حياة مفتوح على الحاضر – للمزيد من النفوذ لصالح شرائع أخرى، ربما أقواها اليوم شريعة العولمة، يمكن

أن يزيد من عمق هكذا إشكالية، من جهة أنه يصب في صالح تكريس فكرة: "المصالح الحياتية المُشبعة بالقداسة"..

وهل لو صح احتمال خسارة الشريعة الاسلامية مستقبلا للمزيد من النفوذ لصالح شريعة العولمة أن تنفجر حضارتنا من الداخل وتشهد انهيارا عظيما يضع حدا لآلامها – المُزمنة –.

أسئلة صعبة .. وحده المستقبل – ربما المنظور – يمكن أن يجيب عنها.

(41)

الضرورة العملية: عندما تُنسخ القداسة بالقداسة

لسنا أصحاب حضارة عادية! حقيقة لم يعد مقبولا التعامي عنها أو حتى المراوغة بشأنها. باءت جميع محاولات التنوير عندنا بالفشل، وأظن أن محاولات التخريب الخلاق هي أيضا مُرشحة للفشل! حضارتنا – بالمعنى الأنثروبولوجي – مُحصنة بالقداسة، على الأقل في نقاط محورية .. لا يُستهان بنفوذها ولا بمردودها على مصائرنا ومجتمعاتنا.

الدولة – أو المُلك – مثلا هي تمكين للإسلام والذي هو شريعة والتي هي بدورها أسلوب حياة. والمرأة أيضا، لملابسها وصوتها وجسدها وعلاقتها بالرجل – خاصة الأسرية – وضعية شديدة الخصوصية والتأطير تتقاطع مع نصوص قرآنية وتعاليم نبوية شديدة الرفق بضعف المرأة، تنظر إليها في رقتها كقارورة توشك أن تتكسر في الأيدي.

الثروة هي الأخرى مكون حضاري محصن بالقداسة، فملكية الإنسان الخاصة مُصانة، لا يظلم الانسان حين يحكم فيها كونه مستخلفا فيها من الله. مروءة منه وفريضة عليه أن يُخرج من ماله حقوق غيره، على نحو في الممارسة العملية

لااجباري. ولقضية الربا وضعية مماثلة، هي شأن اقتصادي مُحصن بالقداسة، من جهة تحريمه.

العقوبات هي أيضا محصنة بالقداسة ومنصوص عليها بوضوح وتفصيل شديدين في القرآن. في معظمها تقبل بالعقاب البدني لمُرتكب الجرم حين تُنتهك حُرمات بعينها.

المواريث هي أيضا محصنة ومنصوص عليها بدقة عبقرية في القرآن، تراعي في مجملها مسئوليات الرجل الاجتماعية وقوامته "المراوغة" على المرأة .. قوامة من الصعب القول بتعارضها مع فكرة التكامل بين عنصري الحياة، ولو أنها مُشبعة بمزاج شرقي..

حتى الوعود في حضارتنا يُمكن أن يُحصنها "أصحابها" بسياج من القداسة!!

بالصدفة .. وبينما أستمع في الصباح إلى الراديو المصري الحكومي، وجدت المذيع الشاب والذي يحاول جاهدا في برنامجه الخفيف أن يملأ صباح مستمعيه بوهم البهجة وسط أجواء فضائح تتسج خيوطها حول الوطن والناس منذ انقلاب 30 يونيو.

المهم، خصص مقدم البرنامج الحلقة لمناقشة مسألة الوعد والوفاء به. إلى هنا ولا مشكلة، غير أني فوجئت به يجيب على أحد المتصلين والشاكي – على ما يبدو

– من إدمانه التقاعس عن الوفاء بوعود يقطعها على نفسه لزوجته! المذيع الشاب وبصياعه مصراوي لا تخلو من استظراف نصح السائل بما معناه: "سهلة قوي، فقط اجعل وعدك مصحوبا بعبارة إن شاء الله، فإن وفيت فبها ونعمت. وإن لم تف تستطيع وقتها ببساطة إرجاع الأمر لمشيئة إلهية أبت عليك الوفاء بهكذا وعد لزوجتك أو غيرها، سهلة يعني"!

كم من الوعود في مجتمعاتنا نراها اليوم تُخلف باسم "إن شاء الله" ..

من هنا، أقول إن طريقة التفكير الفلسفي تمنح صاحبها جرأة التخريب الخلاق لهكذا حضارة إسلامية محصنة في معظم نقاطها المحورية بالقداسة، وهو ما يغرى البعض بالتجرؤ على القداسة، على نحو ربما لا يوجد في غير حضارتنا. الأنسني يرى حضارته طفلا معاقا لا يملك أن ينكرها أو أن يستبدل بها حضارة أخرى. هو منها وهي منه. واجبه أن يناضل لأجل الارتقاء بها وصونها، يناضل بلامصلحة وبلا خوف، وهو يراها تترنح تحت وطأة صدئها وعجزها بل واضطرارها في أحايين كثيرة وكما نرى اليوم لإفساح المجال أمام غرس يد الغير الحضاري كلما أجبرتها الضرورة العملية على هذا!

"الضرورة العملية" وحدها اليوم في حضارتنا من تنسخ القداسة باسم القداسة!

(42)

الفلسفة والحياة

للفلسفة صورة ذهنية في الوجدان العربي شديدة الخواء. الناس في بلادي يعرفون عن الفلسفة أنها نفى المقدس وهدر الحياة وفتح أبواب الزيغ والضلال على مصاريعها وأيضا الافتئات على المقدس والشريعة. صورة ذهنية نُسجت خيوطها بحبكة، لم تترك للفلسفة عندنا موطيء قدم.

الفلسفة فضاء رحب لا يضيق بإنسان أو بفكرة، للثورة فيه حضور دائم، إن لم يكن هو ذاته الثورة. الفلسفة فضاء ثوري، عصي على رهاب الخطأ والرداءة والفساد. هكذا كوارث إن هي وقعت – بحكم طبيعتنا البشرية اللامعصومة –، لا يكاد فضاء الفلسفة يدخر جهدا في سحقها.

الفلسفة في أبسط تعريفاتها وأغناها هي نُشدان الحقيقة وليست سعيا لامتلاكها. بهذا التعريف قد لا تكون الفلسفة مناسبة لعموم الناس وقد لا يستسيغها الوجدان الشعبي عموما، ليس في مجتمعاتنا فحسب، كونها تعول كثيرا على الحرية المسئولة. عند الخطأ يلفحك جحيم الضمير!

من رحابة الفلسفة أن عموم الناس يجدون في فضائها "طريقة التفكير الفلسفي"، أصحاب هكذا طريقة تفكير يتعاملون مع الحياة من منظور أنها مصالح حياتية مُشبعة بالمعرفة والفضيلة. على خلاف نظرائهم من أصحاب "طريقة التفكير الفقهي"، والذين يتعاملون – كما في مصر – مع الحياة من منظور أنها مصالح حياتية مُشبعة بالقداسة. الفلسفة لا تُعادي هكذا مصالح أو تتجاهلها، تُريدها مُشبعة بالمعرفة والفضيلة، هي تمرد على وسطية وعملية ومصلحية الحياة!

في فضاء الفلسفة تجد "الفلاسفة" يشيدون بتفلسفهم في حيواتهم القصيرة صروح الأبنية النظرية بروعتها وألقها، عند هؤلاء قد تصل المصالح الحياتية لأوهن حضور لها في الوجدان الانساني. من هنا – ربما – تجيء الصورة الذهنية للفلسفة في وجدان شعوبنا وكيف أنها شطط الخيال بعيدا عن المصالح الحياتية، على خلاف ما تأمرنا به شريعة الاسلام والتى هي أسلوب حياة.

ما بين أصحاب التفكير الفلسفي والفلاسفة متسع لمحبي الحقيقة. جميعهم يتبع الحقائق لا المصالح الحياتية. جميعهم ثقافته اللامصلحة واللاخوف. جميعهم يروقه الغرس لا قطف ثمار الغير(خاصة الحضاري). الفلسفة بحث عن الظمأ وليس الرواء. الفلسفة تنظر لجذورها وتهضم الحقائق غير المريحة دون صعوبة تذكر. يصعب في حضورها أن يطمئن أو يدوم انكار الحقائق أو أن يشيع التواطؤ على الظلم والفساد(التعريص)، النقد الخشن توأم المعرفة والفضيلة، أما التواطؤ(التعريص) بدعوى حسن معاملة الناس فهو ثمرة محرمة .. يتعففها محبو الحقيقة.

ربيعنا العربي مُلطخ بالفضائح والخديعة، حتى لاعنفيته تجدها لاأخلاقية، هي ليست كلاعنفية غاندي مثلا، يلقي هذا – حتما – بظلال ثقيلة وربما كارثية على حيواتنا ما بعد انكسار حكم العسكر والملكيات المستبدة! الكثيرون يتخذون كالعادة من مقتضيات الضرورة الثورية مبررا لتسويغ هكذا لاأخلاقية. السهولة توأم الرداءة، من هنا لا أستسيغ كثيرا تفاخر الغربيين بربيعنا اللاأخلاقي وتجاهلهم افراطه في الفوضى والخديعة والفضح، على نحو تحكمي تحريضي وليس ثوريا تنويريا، يُفقد هذا ربيعنا العربي، وهو فكرة عظيمة، الشرف الثوري وامكانيات الاستدامة!

ثورات الفوضى والفضح والخديعة هي أردأ أنواع الثورات – للأسف –، غير أن دماء شهدائنا وأوجاع مصابينا ومعتقلينا تظل "أطهر" ما في ربيعنا اللاأخلاقي، لولاها لغطى "العار" ربيعنا!

(43)

المواطن "الأمنجي" وبؤس الاستبداد

"أن تكون غير قابل للغزو يكمن في داخلك"

صان تسو

قادتني الصدفة إلى مشاهدة جزء من فيلم "ناجي العلى" بطولة الممثل المصري نور الشريف، وناجي العلي رسام كاريكاتير فلسطيني ثائر، رافض للمساومة وأنصاف الحلول كما فهمت من الفيلم، إغتاله مجهولون في لندن عام 1987.

ثمة مشهد في الفيلم توقفت أمامه كثيرا، وهو إخراج الاسرائيليين لأهالي قرية فلسطينية بعد إقتحامها، وإجبارهم على الجلوس في ذلة ومهانة على الأرض خارج قريتهم في حراسة جنود مدججين بالسلاح .. متنمرين بهؤلاء الضحايا العُزل! الفيلم سرعان ما كشف أن هكذا تصوف هدفه تمكين عناصر فلسطينية مُلثمة – طبقا للفيلم – من التعرف على شخصيات المقاومين، لتصفيتهم على أيدي الغُزاة.

هالنى أن مجرد إشارة من إصبع فلسطيني مُلثم كافية لإنهاء حياة أحد مواطنيه، ناهيك أن يُفعل هذا بدم بارد، الملثمون يدخنون سجائرهم ويحتمون بغاصبي أوطانهم، بينما يُسلمون مواطنيهم للموت.

الظاهرة ليست جديدة، فكرة أن يجد الغاصب من يتعاون معه من أهل الأرض المغتصبة، قرأت عن حدوثها في بلدان شتى، فرنسا تحت النازية – مثلا – شهدت ويلاتا كهذه. ولنابليون مقولة شهيرة لأمنجي نمساوي، ساعده على غزو بلاده، ألقى نابليون إليه صرة المال وقال: "أقسمت ألا تصافح يدى يد خائن"!

الأكثر خطورة وإيلاما هو شيوع هذه الظاهرة في منطقتنا، على الأقل في ظل حكم العسكر والملكيات المستبدة ما بعد الحرب العالمية الثانية. فعلى خلفية تمكين الغربيين بزعامة أمريكا للاستبداد، لجأ مستبدونا لتسميم نسيجنا المجتمعي بنبت "المواطن الأمنجي" أو "الأمنجية" كما يحلو لنشطاء الربيع العربي تسميتهم.

وأظن هذا تم وفقا لنصيحة غربية، فشيوع "الأمنجية" في مجتمع جدير بتسميمه وإفقاده كل قدرة على التمرد والتطرف الخلاق، من جهة حتمية إقتران شيوع الأمنجية بشيوع الخوف والحذر والتواطؤ والتعريص وسقوط الهمة إلخ. وللربيع العربي المغدور الفضل في الكشف عن هكذا سموم مجتمعية، طفت بعفوية على السطح وكشف الكثير منها عن نفسه، ربما لخوض معركته الأخيرة من أجل البقاء.

يزيد من خطورة ظاهرة الأمنجية، خاصة في الأوطان غير المحتلة كفلسطين، أنها تصبح أشد تدميرا للإنسان الأمنجي – وهو أيضا ضحية – وللنسيج الاجتماعي، حيث يصعب على السذج الاعتراف بوجودها، ناهيك عن التصدى لتفكيكها.

فهؤلاء الأمنجية عادة ما يملكون حاضنة شعبية، ربما لا يمتلكها المناضلون أنفسهم. هم يتم غرسهم بدربة في نسيج المجتمع، على إختلاف فئاته وطبقاته ومؤسساته، حتى أن المجتمع في مراحل متأخرة – كالتى نعيشها اليوم – ربما يرى في إجتثاث هكذا ظاهرة سرطانية تهديدا لوجوده وأمنه، ومن ثم يتصدى هو نفسه لحمايتها ويصير الأمنجية أبطالا!!

قابلت أحدهم يوما – أو هكذا ظننت على الأقل – فوجدت له وجه لاعب بوكر، جامد غامض، يرى في السلطة خاصة ذراعها الأمنى، آلهة لا تُنازع في الأرض، ولا قبل لبشر برفع رأسه في مواجهتها، وإلا اضهدته وعذبته وغيبته وراء الأسوار هو ومن قد يتصدى للدفاع عنه.

وجدته أيضا شديد الذكاء، غير أن مقاصده الأمنية تُفقده – حتما – رحابة الرؤية وتُوقعه في فخ إلتواء الذكاء. تجده يلف ويدور ليستنطق ضحيته ويورطها ويضع الأنشوطة حول عنقها، بهدف أن يُصيرها دُمية في يدى آلهته.

المواطن الأمنجي توأم حكم الاستبداد، ولن تبيد هكذا ظاهرة كارثية – أو على الأقل لن تصبح في حدها الأدنى – إلا بتقويض الاستبداد والاستعانة على تفكيكه بطرائق تفكير لا تعرفها مجتمعاتنا، كالتفكير الفلسفي مثلا، فالتفكير الفقهي – برأيي – غير قادر وحده على تقويض الاستبداد !!

(44)

الفضح "المصلحي" أسوأ من التواطؤ

"**من كان منكم بلا خطيئة**"

المسيح

ربيعنا المصري – وربما العربي أيضا – يشهد طوفانا من الفضح المصلحي، ضمن جهود تقويض دولة العسكر وأنصارها. رموز الدولة المغادرة يبدون عُراة من كل شيء إلا التواطؤ! يصب هذا بطبيعة الحال في صالح ربيعنا المغدور، على الأقل في المديين القصير والمتوسط، غير أن لا تنويرية هكذا فضح تُصادر على خصوبته، تجعله سطحيا عقيما، بعيدا كل البعد عن تجفيف بؤر العفن، وهي في معظمها فكرية حضارية. المفضوح والفاضح – في مصرنا– يفكران بطريقة واحدة!

خطورة التقويض بالفضح المصلحى – في رأيي– انه يسمح بانتقال أمراض الدولة القديمة إلى الدولة الوليدة وهى دولة إسلام سياسي على الأرجح، ناهيك عن اسهامه في تكريس نهج الابتزاز واستباحة الخصوصيات واشاعة الخوف وتدجين النفوس. يظهر هذا بوضوح مثلا في حالة أحد الشخصيات "الفلولية" بمصر، تراه وقد خبت نيران تحامله على الاسلاميين، فقط على خلفية فضيحة جنسية كبرى ضربت أوساطا بعينها مؤخرا. مثل هذا الاستسلام المشبوه لا يصب في صالح صاحب الشخصية أو مجتمعنا أو حضارتنا، فلا هو اقتنع بأنه أخطأ، ولا هو اقتنع بأن في

الكرامة والعزة متسع للجميع، ولا هو ولا مجتمعنا حظيا بميزة الفضح التنويري أو الذاتى، كل ما يعرفه الرجل أن قوة تفوق قوة دولته المغادرة، لابد أن يركع أمامها!

أسمى هذا النمط من الشخصية "نفسية بلطجي"، هو نمط لم تستحدثه دولة العسكر، وإن اجتهدت لعقود وعقود في تكريسه وتسويقه بيننا. مواطنونا بمقتضى هكذا نمط يخضعون للقوي المتغلب، ويتوقعون ممن دونهم قوة اتيان السلوك نفسه.

من الصعب تبرئة الغربيين – خاصة أمريكا – منذ ما بعد انتهاء الحرب العالمية الثانية من خطيئة التورط في التمكين لهكذا عفن أخلاقي في أرضنا، عبر دعمهم اللامحدود للدولة المغادرة ورموزها على كافة المستويات، في اتجاه تكريس الخوف واعلاء المصلحية المتطرفة، على حساب آلام مواطنينا وهدر أعمارهم. وهو ما يفسر لجوء السبتمبريين في فك شفرة دولة العسكر إلى ضرب مصالح الغربيين!

ولسوف يخبرنا الغد ما إذا كان الغربيون ماضون في ظلمهم، خاصة وأن الثورات الرقمية والمعرفية والبيوتكنولوجية تجعلهم أقرب لشراكة في حكم "مباشر" لمجتمعاتنا، عبر امكانيات غير مسبوقة في هندسة المجتمعات ومزاجها الحضاري. وبرغم تفهمي لشريعة العولمة واقراري بشدة وجدية منافسة العديد من مفرداتها لشريعتنا الحضارية، يظل فرضها "الناعم" – وهو ما أتوقعه – كفيلا بتشييئها وسحق ما تبقى لأهلنا وحضارتنا من أمل في الحياة وفي الثورة والتمرد والتخريب الخلاق.

أعود لحديثى عن الفضح "المصلحى" وأقول إنه ليس تنويريا وليس خلاقا، هو توأم الاذلال والابتزاز وكسر الارادة. هو يحرم مجتمعاتنا من الكسر الذاتي الاختيارى لرهاب الخطأ. ولشد ما أحسد مفكرى الغرب على جسارتهم في فضح أنفسهم وتقيؤ أخطائهم وخطاياهم على مرأى ومسمع من مجتمعاتهم بل والدنيا بأسرها. يمنحهم هذا قوة وتجردا جبارين تفتقدهما شعوب كشعوبنا مشغولة بالستر للخطايا، وليس التقيؤ.

ولا أدرى، هل أرتكب حماقة بتقيؤ خطاياي أو بعضها علنا، على أمل كسر رهاب الخطأ، في مجتمعات شديدة القسوة، تعبد القوة والنجاح، لا تحترم ضعفا ولا يريد ما بداخل أبنائها الحقيقة! أنا مثلا لم أكن إبنا وفيا كما يليق، كنت أقرب إلى العقوق منى إلى الوفاء، ليس تجبرا بل ربما جهلا..لست أدري؟ أيضا لم أكن أخلاقيا في سنوات مضت بنفس قدر ما أتحراه اليوم بعناد وما أنشده من أخلاقية. وربما يكون هذا منطقيا في واقع اباحى كواقعنا، يجعل من الحياة عبئا، يعجزنا عن نقدها وتطويرها، كما في علاقة الرجل بالمرأة مثلا، وقد ترديت في أوحال بؤس هكذا تعاطى مجتمعي رديء. سحقت الفضيلة، تخليت عن مروءة، ولشد ما أشعر بالخجل كلما جال الماضي بصدري. صحيح أن الله ستار، غير أن تقيؤ الخطيئة فضيلة.

الخطايا والأخطاء حفنات من وهن تسكن نفوس البشر، باعترافنا يغادر هكذا وهن نفوسنا ونمتلك جرأة ونزاهة ذكر الفضيلة بلا وخز من ضمير. ولمن قد يعيب على أمثالى تبجحهم بتقيؤ خطاياهم علنا، أسأل: أليس من حقي كإنسان لامعصوم أن تشهد نفسي عبر مراحل عمرى المختلفة، وأنا الآن قد جاوزت الأربعين بسنين، تراكما أخلاقيا يماثل تراكم الثروة لدى الأغنياء. لماذا نقبل من الأغنياء سنوات فقرهم

وما راكموه لاحقا من ثروات، وننكر على بعضنا البعض سنوات فقرنا الأخلاقي وما نراكمه من معرفة وفضيلة في سنوات العمر المتأخرة. لنتصالح مع طبيعتنا البشرية!

تم الكتاب